عيون الأدب الأجنبي



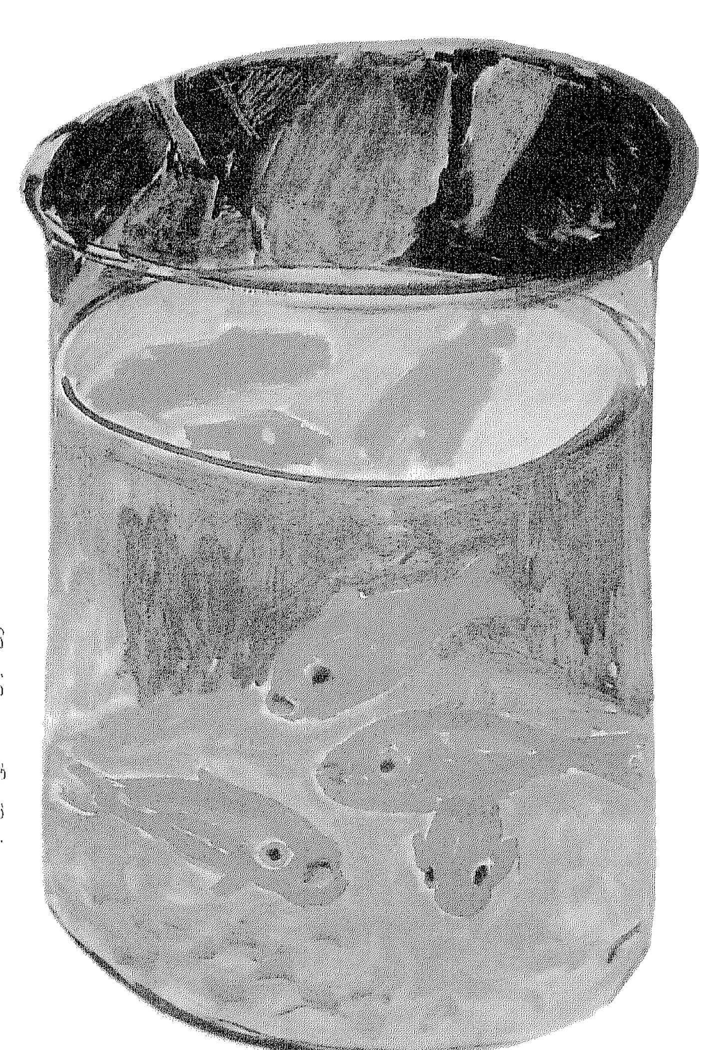
ترجمة : أ. رشيد و س. البحراوي



شرقيات

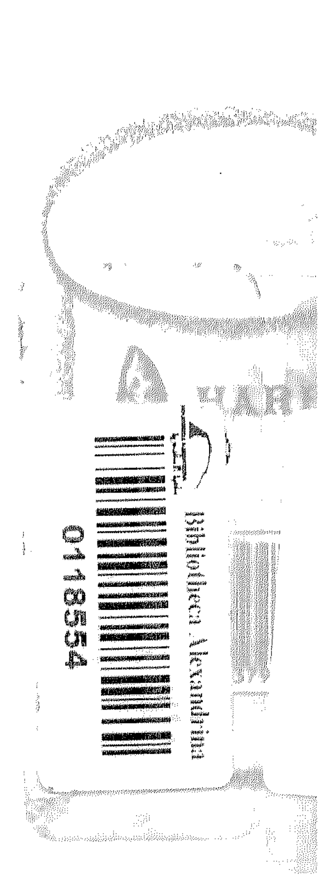
المكان

آني إرنو



هنري ماتيس

محيي الدين اللباد



وجع الخيانة ، اختراق المحظور وكشف الجرح القديم

معتمدة على وقائع وصور وذكريات ، مشاهد دقيقة وجمل شائعة ، تستعيد آنى أرنو بدقة وضع أبيها ، وهامش الحرية المحدود الذى استقر عليه من أجل صنع « مكانة تحت الشمس » . غير أنها لاتحيى فقط صورة أب ، ولكنها تبرز بدقة كل الإرث الثقافى للمقهورين الذى نسيته من أجل الصعود فى السلم الاجتماعى .

« ليست وظيفة الكتابة أو نتاجها طمس جرح أو علاجه ، وإنما إعطاؤه معنىً وقيمة ، وجعله ، فى النهاية ، لا يُنسى » .



دار شرقيات للنشر و التوزيع

المكان

هذه ترجمة لرواية
La Place
تأليف
Annie Ernaux
الناشر
Gallimard, Paris 1984

الطبعة العربية الأولى

دار شرقيات للنشر والتوزيع
٥ شارع محمد صدقى، من هدى شعراوى
باب اللوق ـ القاهرة . ت ٣٩٣٠٣٣٥

الغلاف والاشراف الفنى على الكتاب :
محيى الدين اللباد

صدر هذا الكتاب
بالتعاون مع
البعثة الفرنسية
للأبحاث والتعاون
قسم الترجمة
القاهرة



آني إرنو

المكان

ترجمة: أمينة رشيد وسيد البحراوي

حصلت الرواية على جائزة
«رينودو» الأدبية
عام ١٩٨٤

دار شرقيات للنشر والتوزيع

«أغامر بتفسير: الكتابة
هي الملاذ الأخير لمن خان»

چان چينيه

إلى القارئ العربي

هذا الكتاب ولد من وجع. وجع أتاني فترة المراهقة، عندما قادتني المتابعة المستمرة للدراسة، ومعاشرة زملاء من البرجوازية الصغيرة إلى الابتعاد عن أبي، العامل السابق، والمالك لمقهى/ بقالة. وجع بدون اسم، خليط من الشعور بالذنب والعجز والتمرد (لماذا لا يقرأ أبي، لماذا «يسلك بفظاظة»، كما يكتب الروائيون؟).

وجع مخجل، لا يستطيع الإنسان أن يصرح به أو حتى أن يشرحه لأحد.

كان موت أبي المفاجئ سنة نجاحي في مسابقة الأستاذية حدثاً فاجعاً. وراء الحزن غمرني يقين «بخيانة طبقية»: كنت قد انتقلت، دون شعور، من عالم أصلي، شعبي، عالم أبي، إلى عالم آخر، عالم البرجوازية المثقفة، التي تعتبر نفسها الوحيدة حاملة القيمة. كنا قد عشنا، أبي وأنا في داخل ذات الأسرة، صراع الطبقات الاجتماعية السائد في المجتمع بأسره.

بسرعة، فرضت نفسها كواجب، ضرورة الكتابة عن حياة أبي وعن المسافة الثقافية بيننا. كنت قد تعلمت لغة القبيلة المهيمنة، وأن أستعملها للحديث عن العالم المَسُود الذي أتيت منه، والذي كان أبي ينتمي إليه، كان ترسيخاً للخيانة.

غير أنني لم أتوقع هذه الدرجة من صعوبة المشروع. أغرقتني في اليأس محاولات متعددة، من بينها رواية من مائة صفحة لم تكتمل. كنت أفشل في الوصول إلى ما كنت أشعر به على أنه حقيقة وضع أبي، أسقط بين نمطين بديلين للكتابة الدارجة عن عالم العمال والفلاحين، الشعبوية والبؤسوية. يقوم الأول على وصف الثقافة الشعبية دون إشارة إلى الاستلاب الاقتصادي، ولا يرى الثاني في هذه الثقافة سوى التعاسة وتدهور الثقافة «الحقيقية».

وعيت ذلك ببطء: كان عليّ أن أرفض أية إعادة بناء خيالية لحياة أبي، وأن أستخدم اللغة بطريقة نقدية، للتحايل على الأيديولوجيا التي تحملها (في عبارات مثل «البسطاء»، «بيئة متواضعة»)، وأن أحصر نفسي في نقل الوقائع.

كانت الكتابة المحايدة، بلا حنين، وبلا تواطؤ مع قارئ مثقف، كتابة تحمل «مسافة»، متفقة مع موقعي كراوية، بين عالمين، هي الوحيدة التي تمتلك فرصة إعطاء صورة سليمة لحياة رجل «عادي». وانطلاقاً من هذا الاكتشاف المنتمي للتحليل الاجتماعي والجماليات معاً، أمكنني استكمال مشروعي.

بعد أن انتهيت من «المكان»، شعرت بخليط من القلق والرضى. قلق، كما في اختراق المحظور: أن يعطي الكاتب موقعه الاجتماعي ويذكر ثقافةً يعتبرها الرأي العام دُنْيا، ورضى لتحقيق مهمة أخلاقية وسياسية ؛ محاولة استبدال العزة بالمهانة الضمنية. بعد ذلك بررت لي ردود الفعل الكثيرة، المؤثرة، للقراء (غالباً: «كأنني أقرأ نفس قصتي») نشر هذا الكتاب، الذي كان يسمح للآخرين بأن يعيدوا اكتشاف أشياء مدفونة، موجعة، معاشة في الخجل والوحدة، وفي النهاية، أن يفهموها.

وإذا كان ثمة تحرر عبر الكتابة، فهو ليس في الكتابة ذاتها، بل في هذه المشاركة مع أناس مجهولين في تجربة مشتركة. ولمن يعيش ممزقاً بين ثقافتين، ليست وظيفة الكتابة أو نتاجها طمس جرح أو علاجه، وإنما إعطاؤه معنى وقيمة، وجعله، في النهاية، لا ينسى.

آني إرنو
أغسطس ١٩٩٣

مررت بالاختبارات العملية في امتحان يؤهل للتدريس بالمدارس الثانوية، في مدرسة بحي «كرواروس» في ليون. مدرسة جديدة بها نباتات خضراء في الجزء الخاص بالإدارة وهيئة التدريس، ومكتبة غطيت أرضيتها بموكيت رملي. انتظرت هناك حتى جاءوا ليأخذوني لإلقاء محاضرتي موضوع الاختبار، أمام المفتش واثنين من المساعدين: أستاذيّ أدب مرموقين. ثمة سيدة تصحح أوراق إجابة بتعالٍ، ودون تردد. كان يكفي أن أمضي الساعة التالية على خير وجه حتى يُسمح لي أن أفعل مثلها طول حياتي. أمام فصل من فصول الصف الثاني الثانوي، شعبة الرياضيات، شرحت خمسة وعشرين سطراً - كان عليّ أن أرقمهم - من «الأب جوريو» لبلزاك.

في مكتب الناظر، بعد ذلك، عاتبني المفتش: «لقد مرمطت تلاميذك». كان يجلسُ بين المساعدَيْن: رجل وامرأة ضعيفة النظر، تلبس حذاءً ورديّ اللون. وكنت أنا في المواجهة. خلال ربع ساعة، انتقادات ومدائح ونصائح لا أكاد أسمعها، وأتساءل ما إذا كان كل هذا يعني أنني نجحت. وفجأة وفي ذات اللحظة هب الثلاثة معاً، في وقار. نهضت أنا أيضاً بسرعة. مدّ المفتش إليّ يده، ثم واجهني صارماً: «سيدتي، أهنئك». وكرر الآخران: «أهنئك»، وشدا على يدي، مع ابتسامة من المرأة.

لم أتوقف عن التفكير في هذا الاحتفال حتى محطة الأتوبيس، بغضب وبنوع من الخجل. في مساء نفس اليوم كتبت إلى والديّ أنني صرت أستاذة «رسمياً». وردت أمي أنهما في غاية السعادة لي.

مات أبي بعد ذلك بشهرين تماماً. كان في السابعة والستين. كان يمتلك، هو وأمي مقهى(*) في حي هادئ غير بعيد عن محطة القطار في يـ... (بمقاطعة سان ماريتيم). كان يعتزم التقاعد بعد عام. كثيراً ما تمر بي لحظات لا أعرف فيها ما إذا كان مشهد مدرسة «ليون» قد حدث قبل أو بعد، وما إذا كان شهر أبريل العاصف، حيث أرى نفسي أنتظر الاتوبيس في كرواروس، يجب أن يسبق شهر يونيو الخانق الذي مات فيه، أو يعقبه.

كان ذلك يوم أحد، عصراً.

ظهرت أمي أعلى السلم. كانت تجفف عينيها بفوطة المائدة التي ربما كانت قد صعدت بها إلى غرفة النوم بعد الغذاء. قالت بصوت هادئ: «خلاص». لا أذكر الدقائق التالية. أتذكر فقط عينيّ أبي وقد ثبتتا على شيء خلفي، بعيد، وشفتاه منفرجتان عن اللثة. أظن أنني طلبت من أمي أن تغلق عينيه. حول سريره، كانت هناك أيضاً خالتي وزوجها. عرضا المساعدة في الغُسل والحلاقة، حيث كان لابد من الإسراع قبل أن تتجمد الجثة. فكرت أمي في إمكانية إلباسه الحلة التي ارتداها لأول مرة في حفل زواجي منذ ثلاث سنوات.

كان المشهد كله يتم ببساطة، دون صراخ أو بكاء. كانت الحركات، هادئة دون فوضى، والكلام عاديّ. كانت خالتي وزوجها يرددان : «رحل بسرعة فعلاً». أو: «تغير كثيراً». وكانت أمي تخاطب أبي كما لو كان مازال حياً، أو مسكوناً بحياة من نوع خاص، مثل حياة المولود تواً. عدة مرات سمّته بمودة: «يا بابا يا صُغيّر يا مسكين».

بعد الحلاقة، تناول زوج خالتي الجسد، ورفعه كي يخلع القميص الذي كان

(*) يعني «المقهى» في النص دائماً: «مقهى/ بقالة»، وقد حذفنا كلمة «بقالة» تحقيقاً لسلاسة القراءة (المترجمان).

يرتديه في الأيام الأخيرة، ويُلبسه آخر نظيفاً.

كانت الرأس تسقط إلى الأمام، على الصدر العاري الذي تبدو فيه العروق. لأول مرة في حياتي، أرى ذكر أبي، أسرعت أمي بإخفائه تحت ثنايا القميص النظيف، وبضحكة صغيرة قالت: «خبي حمامتك يا غلبان». بعد الغُسل، ضمّوا يديّ أبي على مسبحة. لم أعد أدري ما إذا كانت أمي أو خالتي هي التي قالت: «كده ألطف» يعني: نظيف، لائق.

أغلقتُ الشيش وحملتُ ابني النائم إلى الغرفة المجاورة: «جدو نايم ننه».

بناء علي رسالة من زوج خالتي جاءت العائلة المقيمة في (يـ...). كانوا يصعدون مع أمي ومعي، ويقفون أمام السرير، صامتين لبعض اللحظات، قبل أن يتمتموا حول مرض أبي وموته المفاجئ، وعندما كانوا يهبطون، كنا نقدم لهم مشروباً في المقهى.

لا أذكر الطبيب المناوب الذي سجل الوفاة. خلال عدة ساعات كان وجه أبي قد أصبح غير واضح الملامح. وقرب نهاية العصرية، وجدت نفسي وحيدة في الغرفة. كانت الشمس تتسلل إلى أرضيتها عبر النافذة. لم يعد هذا أبي، كانت الأنف قد احتلت كل مساحة الوجه الغائر. وفي حلته قاتمة الزرقة، الواسعة حول الجثة، كان يشبه عصفوراً نائماً. كان قد اختفى، ساعة ما بعد الوفاة، وجه الرجل ذو العينين الكبيرتين المفتوحتين الثابتتين اللتين كانتا.

حتى هذا الوجه لن أراه أبداً بعد ذلك.

بدأ الإعداد للدفن، مستوى الكفن، القداس، النعي، ملابس العزاء.
كنت أشعر أن هذه التجهيزات لا علاقة لها بأبي.
احتفال سوف يغيب عنه لسبب ما.
كانت أمي في حالة استثارة شديدة وأسرّت إليّ بأن أبي قد تسلل إليها في الليلة الماضية ليقبّلها، بينما قد فقد النطق: «كانْ وادْ جميل، تعرفي، لما كان شباب».

فاحت الرائحة يوم الاثنين. لم أكن قد تخيلت ذلك. عفن عذب في البداية، ثم مفزع كرائحة زهور منسية في إناء ماء راكد.
لم تغلق أمي المقهى إلا مدة الدفن، وإلا ضاع منها زبائن، ولم تكن تستطيع أن تسمح لنفسها بذلك. كان أبي الميت راقداً أعلى، وكانت هي - أسفل - تقدم للزبائن الباستيس والنبيذ الأحمر. دموع وصمت ووقار، هذا هو السلوك اللائق عند وفاة شخص قريب، في منظور محترم للعالم. أما أمي وجيرانها، فقد كانوا يخضعون لقواعد سلوك لا مكان فيها للوقار.

بين موت أبي يوم الأحد، ودفنه يوم الأربعاء، كان كل زبون، بمجرد جلوسه، يعلق على الحدث بطريقة خالية من الانفعال، وبصوت خفيض: «يا خسارة! المعلم راح»، أو بمرح مصطنع: «كده؟ سَلِّم!». كانوا يفسحون لانفعالهم عندما تلقوا الخبر: «انقلب حالي»، «ما اعرفشي جرى لي أيه»، يريدون بذلك أن يبينوا لأمي أنها ليست وحيدة في مصابها، نوع من المجاملة. وكثيراً ما كانوا يتذكرون المرة الأخيرة التي رأوه فيها سليماً، باحثين عن كل تفاصيل ذلك اللقاء الأخير، الموقع الدقيق، اليوم، حالة الطقس، والكلام الذي دار. هذا الاستدعاء الدقيق للحظة كانت فيها الحياة مسلّماً بها، وسيلة للتعبير عما حمله

موت أبي من صدمة للعقل. كانوا يريدون رؤية «المعلم» على سبيل المجاملة أيضاً.

لم تكن أمي تستجيب - مع ذلك - لكل الرغبات. كانت تفرز أولئك الطيبين المتعاطفين حقاً من الخبثاء الذين يدفعهم الفضول. سُمح لكل رواد المقهى تقريباً أن يودعوا أبي. وطردت زوجة الجار المقاول لأنه لم يكن - في حياته - يطيقها هي وفمها الذي يشبه «طيز الفرخة».

جاء الحانوتي يوم الاثنين. اتضح أن السلم الصاعد من المطبخ إلى الحجرات لا يتسع لمرور النعش. كان لابد من وضع الجثة في كيس من البلاستيك، وعلى السلالم سُحبت أكثر مما نُقلت، حتى وضع النعش في وسط المقهى المغلق لمدة ساعة. نزول طويل جداً، مع تعليقات العمال حول أفضل طريقة للتصرف لإدارة الجثة عند المنحنى...الخ.

كان ثمة ثقب في الوسادة حيث استلقت الرأس منذ يوم الأحد. وطوال بقاء الجثة هناك، لم نكن قد رتبنا الحجرة. كانت ملابس أبي ما زالت فوق الكرسي. من خلال سوستة جيب العفريتة، استخرجت رزمة نقود - حصيلة يوم الأربعاء الماضي، ثم ألقيت الأدوية، وحملت الملابس إلى الغسيل.

غداة الدفنة، طبخنا قطعة كندوز لوجبة ما بعد المأتم. ليس من اللائق أن يذهب من شرّفوا الدفن وبطونهم خاوية.

وصل زوجي في المساء، وبشرته قد اسمرّت، منزعجاً من حداد لم يكن حداده.

بدا في غير مكانه، أكثر من أي وقت آخر.

نمنا في السرير الواسع الوحيد، هذا السرير الذي مات فيه أبي.

الكثيرون من أبناء الحي الذين جاءوا إلى الكنيسة: نساء لا يعملن، وعمال استأذنوا ساعة. وبالطبع لم يهتم أحد من ذوي «المراكز العالية» الذين تعامل معهم أبي طيلة حياته، وكذلك التجار الآخرون. لم يكن يشارك في شيء، كان فقط يدفع اشتراكه في اتحاد التجار، دون أن يُسهم في أي شيء كان. في خطبة الجنازة تحدث الأسقف عن «حياة من الأمانة، من العمل»، «رجل لم يضر أحداً على الإطلاق».

ثم كان الشد على الأيدي. مرَّ علينا نفس الناس الذين سبق أن شددنا على أيديهم، نتيجة لخطأ من خادم الكنيسة المشرف على العملية، أو ربما قد اخترع تلك الحيلة لتضخيم عدد الحاضرين. هذه المرة دورة سريعة ودون كلمات عزاء.

في المقابر، عندما كان النعش يهبط متأرجحاً بين الجبال، انفجرت أمي باكية، مثلما فعلت يوم زواجي، في القداس.

قدمت وجبة الدفن في المقهى على الموائد التي صُفت متلاصقة. بعد بداية صامتة، تدفقت الأحاديث. الطفل، المستيقظ تواً من قيلولته، كان يتجول بين الحاضرين مقدماً لواحد أو لآخر، زهرة، حصاة، أي شيء كان يجده في الحديقة. عمي، الذي كان يجلس بعيداً عني، انحنى ليراني وصاح: «فاكرة لما كان أبوك بيوديك المدرسة على عجلته؟!». كان صوته هو نفس صوت أبي.

نحو الساعة الخامسة ذهب المدعوون. رتبنا الموائد دون كلام. عاد زوجي

بالقطار في ذات المساء.

بقيت مع أمي عدة أيام من أجل الأمور والإجراءات المعتادة بعد الوفاة: إبلاغ العمودية من أجل البطاقة العائلية، محاسبة الحانوتي، الرد على برقيات العزاء. كروت جديدة: حرم المرحوم أ..د.

فترة بيضاء، دون أفكار. عدة مرات، بينما أسير في الشوارع: «أنا شخص بالغ» (أمي، زمان، بسبب الحيض: «أنت بنت بلوغ»).

جمعنا ملابس أبي لتوزيعها على المحتاجين. في سترات العمل، المعلقة في المخزن، وجدت محفظته. كان بها بعض النقود، ورخصة القيادة. وفي الجزء المطوي، صورة مدسوسة ضمن قطعة من صحيفة. الصورة قديمة بحافتها المسننة، تظهر مجموعة من العمال في ثلاثة صفوف، ناظرين إلى الكاميرا، وجميعهم بالكاسكيت. لوحة نموذجية لكتب التاريخ تصور إضراباً أو جبهة ١٩٣٦ الشعبية. تعرفت على أبي في الصف الأخير. هيئته جادة، شبه قلق. الكثيرون يضحكون. أما قطعة الصحيفة فكانت تحمل نتائج مسابقة قبول حاملات الثانوية العامة بالمدرسة العليا للمعلمات، بالترتيب. كان الاسم الثاني، أنا.

استردت أمي هدوءها. تخدم الزبائن كما كانت من قبل. وعندما تنفرد بنفسها، تغور ملامحها. اعتادت أن تذهب كل صباح، مبكراً قبل أن تفتح البقالة، إلى المقابر.

في قطار العودة، يوم الأحد، حاولت أن أسلّي ابني حتى يبقى هادئاً، مسافرو الدرجة الأولى لا يحبون الضوضاء، والأطفال المزعجين.

فجأة، مذهولة: «الآن، أنا فعلاً برچوازية» و«بلا رجعة».

فيما بعد، في الصيف، وأنا أنتظر وظيفتي الأولى «سينبغي عليَّ أن أفسر كل ذلك». كنت أريد أن أقول، أكتب عن أبي، حياته، وتلك المسافة التي وقعت في فترة المراهقة بيني وبينه. مسافة طبقية لكن خاصة، لا اسم لها. مثل الحب المنفصل.

بعد ذلك، بدأت رواية، كان هو شخصيتها الرئيسية. شعور بالقرف في وسط القصة.

منذ فترة قصيرة، أدركت أن الرواية مستحيلة. لأنها حياة خاضعة للضرورة، لا حق لي أن أنحاز للفن ولا أن أحاول أن أصنع شيئاً «مُشوِّقاً» أو «مؤثراً». سأجمع أحاديث أبي، حركاته، أذواقه، الوقائع البارزة في حياته، كل العلامات الموضوعية لوجود شاركت فيه أنا أيضاً.

لا شعر ذكريات، لا سخرية متوهجة. الكتابة المسطحة تأتيني تلقائياً، هي نفسها التي كنت استخدمها للكتابة، فيما مضى، إلى أبوي لأقول لهما الأخبار الهامة.

تبدأ القصة قبل بداية القرن العشرين بشهور، في قرية من بلاد «كو»، على بعد خمسة وعشرين كيلو متراً من البحر. كان الذين لا يملكون أرضاً «يُستَأجرون» لدى كبار مزارعي المنطقة. كان جدي يعمل «عَربجياً» في مزرعة، وفي الصيف، وقت الحصاد، كان أيضاً يجمع الدريس. لم يفعل غير ذلك طوال حياته منذ سن الثامنة. مساء السبت، كان يحمل لزوجته كل أجره، وكانت هي تعطيه مصروف الأحد كي يلعب الدومينو ويشرب كأساً. كان يعود مخموراً مع مزيد من الوجوم. ولأتفه الأسباب يوزع اللطمات بطاقيته على الأطفال. كان رجلاً جافاً، لا يجرؤ أحد على مشاجرته. زوجته ماكانتشى مبسوطه. كان الجفاف حافزه الحيوى، قوته في مقاومة الفقر، والثقة في رجولته. وما كان يثيره بصفة خاصة، هو أن يرى أحداً من أسرته غارقاً في

كتاب أو جريدة. لم يجد الوقت لتعلم القراءة والكتابة. الحساب فقط هو ما كان يعرفه.

لم أر جَدي سوى مرة واحدة، في الملجأ الذي توفي فيه بعد ذلك بثلاثة أشهر. اصطحبني أبي من يدي عبر صفين من الأسرة، في عنبر ضخم، نحو عجوز في غاية الضآلة ذي شعر أبيض جميل ومجعد. كان يضحك طوال الوقت وهو ينظر إليّ مليئاً بالرقة. كان أبي قد دس له ربعاً من الخمر، أخفاه تحت ملاءته.

في كل مرة حدثوني عنه، كان الحديث يبدأ بـ «لم يكن يعرف القراءة والكتابة» وكأن حياته وشخصيته لا تُفْهَمان دون هذا المعْطَى الأول. أما جدتي، فقد تعلمت في مدرسة الراهبات. مثل نساء القرية الأخريات، كانت تنسج في دارها لحساب مصنع صغير في «روان»، في غرفة محرومة من الهواء يدخلها ضوء ضئيل عبر فتحات مستطيلة ليست أوسع مما بين قضبان زنزانة. كان ينبغي ألاّ يُفْسدَ الضوء الأقمشة. كانت نظيفة في نفسها وفي بيتها، أهم صفة في القرية، حيث كان الجيران يراقبون بياض الغسيل على الأحبال وحالته، ويعرفون ما إذا كان «دلو الليل»(*) قد أفرغ كل صباح. ورغم أن سياجاً وجُدراً كانت تعزل المنازل عن بعضها البعض، لم تغب عن عيون الناس ساعة رجوع الرجل من الحانة، أو الأسبوع الذي ينبغي أن تطير فيه الفوط الشهرية في الهواء.

كانت جدتي تتميز - حتى - ببعض اللباقة. في الأعياد تضع على مؤخرتها حشواً من الكرتون تحت الثوب، ولم تتبول واقفة - من تحت تنورتها

(*) تقصد «دلو البول». (المترجمان)

مثلما كانت تفعل أغلبية نساء الريف استسهالاً. وحوالي سن الأربعين، بعد خمسة أطفال، سيطرت عليها الأفكار السوداء، فكانت تكف عن الكلام لبضعة أيام. وبعد ذلك روماتيزم في اليدين والساقين. رغبة في الشفاء كانت تذهب إلي القديس ريكييه والقديس جييوم الصحراوي، وتمسح التمثال بمنشفة تضعها بعد ذلك على الأجزاء المريضة. تدريجياً كفت عن المشي. وكانت تُستأجر عربة حنطور لتحملها إلى القديسين.

كانوا يسكنون داراً واطئة، سقفها من البوص وأرضيتها من الطين، يكفي أن تُرش قبل أن تُكنس. ويعيشون على ما تأتي به الحديقة وعشة الدجاج، ومن زُبد المزارع وقشدته التي يتركها مالك الأرض لجدي.

قبل الأوان بشهور كانوا يفكرون في الأفراح والتناول ويصلون إليها وبطونهم فارغة منذ ثلاثة أيام كي تزداد الفائدة. مات طفل من القرية وهو في فترة النقاهة بعد حمى قرمزية، مختنقاً وهو يقئ قطع الدجاج التي زُغِّط بها. أيام الآحاد الصيفية كانوا يلتقون في الساحات حيث يلعبون ويرقصون. وذات يوم انزلق أبي من فوق «عمود العجائب»(*) دون أن يُنزل سلة الغذاء المعلقة. استمر غضب جدي ساعات وساعات: «يا فالح».

(*) لعبة يتسلق فيها المتسابقون جذعاً أملس بأعلاه سلة وعلى المتسابقين أن ينالوها (المترجمان).

علامة الصليب على الخبز، القداس، عيد الميلاد. كان الدين، مثل النظافة، يمدهم بالوقار. يلبسون ثياب الأحد، يغنون نشيد الإيمان، والمزارعون المقتدرون يضعون النقود في طبق (التبرعات). كان أبي شماساً وكان يحب مصاحبة راعي الكنيسة وهو يوزع الغذاء، وجميع الرجال يرفعون قبعاتهم عند مرورهم.

كان (عند) الأطفال دائماً ديدان. لطردها كان يحاك بداخل القميص - قريباً من السرة - كيس صغير مليئ بالثوم. وفي الشتاء، القطن في الأذن. حينما أقرأ «بروست» أو «مورياك» لا أجدهما يذكران الزمن الذي كان فيه أبي طفلاً. إطاره هو كان العصور الوسطى.

كان يمشي كيلو مترين على رجليه ليصل إلى المدرسة. كل يوم اثنين، كان المدرس يعاين الأظافر ورقبة البلوفر وآثار البقّ في الشعر. كان يعلّم بقسوة، المسطرة الحديدية على الأنامل، محترم. كان بعض تلاميذه يصلون إلى الشهادة الابتدائية ضمن أوائل المقاطعة، وواحد أو اثنان إلى مدرسة المعلمين. كان أبي يتغيب عن المدرسة بسبب جمع التفاح والعشب وتربيط القش، بسبب كل ما كان يزرع ويحصد. حينما كان يعود إلى المدرسة مع أخيه الأكبر، كان المعلم يصيح: «يعني أهلكم عاوزينكم فقرا زيهم!». نجح في أن يتعلم القراءة والكتابة دون أخطاء. كان يحب أن «يتْعَلّم». (هكذا كان يقال «يتْعَلّم» مثل «يِشْرَب» أو «يَاكُل»). يرسم أيضاً رؤوساً، حيوانات. في الثانية عَشرة من عمره وجد نفسه في نهاية المرحلة الابتدائية. أخرجه جدي من المدرسة ليلحقه بنفس المزرعة التي كان يعمل بها. لم يعد ممكناً أن يطعموه كي لا يفعل شيئاً. «ماكُنّاش نعرف، قسْمتنا كده».

كان عنوان كتَاب القراَءة المقرر على أبي «جولة طفلين حول فرنسا». وتقرأ فيه جمل غريبة مثل:

«نتعلم كيف نكون دائماً سعداء بوضعنا» (ص١٨٦ من الطبعة رقم ٣٢٦).

«أجمل شيء في الدنيا شفقة الفقير» (ص١١)

«أسرة تجمعها المحبة تمتلك أفضل الثروات» (ص٢٦٠)

«أسعد ما في الغنى هو أنه يسمح بتخفيف بؤس الآخرين» (ص١٣٠)

السمو لدى الأطفال الفقراء يعني:
«لا يضيع الرجل النشيط دقيقة من وقته. وفي أخر كل يوم تكون كل ساعة قد أعطته شيئاً. المهمل، على العكس، يؤجل دائماً المهمة إلى وقت آخر. ينام وينسى نفسه في كل مكان، في السرير والمائدة والحديث. يأتي اليوم إلى نهايته، لم يفعل شيئاً. تجرى الشهور والسنوات، تأتي الشيخوخة، وهو ما زال عند نفس النقطة».

هذا هو الكتاب الوحيد الذي كان يتذكره، «كان ذلك يبدو لنا حقيقياً».

أخذ يحلب البقر في الخامسة صباحاً، وينظف الاسطبلات ويراعي الخيول، ويحلب البقر في المساء. في المقابل له الكساء والغذاء والسكن وبعض النقود. كان ينام فوق الاسطبل على حصيرة دون فَرش. الحيوانات تحلم، تدق الأرض طوال الليل. كان يفكر في دار أبويه، مكان محرمٍ الآن. إحدى أخواته، خادمة لكل الأغراض، كانت تظهر أحياناً عند السور بصرّتها، خرساء. كان الجَد يلعن، وهي عاجزة عن أن تقول لماذا هربت مرة أخرى من مكانها. في ذات الليلة كان يردها إلى أسيادها ذليلة.

كان أبي مرحاً، محباً للعب، مستعداً دائماً لحكي القصص والتهريج. لم يكن في المزرعة أحد في سنّه. يوم الأحد كان يخدم القداس مع أخيه، راعي بقر مثله كان يغشى «التجمعات»، يرقص، يلتقي، بزملاء المدرسة. **سعداء رغم كل شيء. لا مفر.**

استمر صبي مزرعة حتى الجيش. لم تعد ساعات العمل تحسب. أصحاب المزرعة يُقتِّرون في الطعام. في يوم تحركت قليلاً قطعة اللحم في طبق راعي بقر عجوز، من تحتها كانت كثرة من الديدان. كان السيل قد بلغ الزبى. تنهض العجوز مطالباً بأن يكفوا عن معاملتهم كالكلاب. استبدلت اللحمة. لسنا في (الباخرة بوتمكين).

من بقر الصباح إلى بقر المساء، رذاذ اكتوبر، أكوام التفاح التي تقلب في المعصرة، زبل الخن يجمع بمجارف كبيرة، الحر، البرد. لكن أيضاً فطيرة الملوك[1]، الألمناك فيرمو[2]، أبو فرو مشوي، يوم الثلاثاء الدسم[3] «لا ذهاب

---

(١) فطيرة تقدم في احتفال ديني. تخفي كنزاً من يحظى به يؤهَّل لتاج الملوك. (المترجمان).
(٢) كتاب نكت وفوازير شعبية. (المترجمان).
(٣) احتفال ديني تُقْلَى فيه الرقائق (الكريب). (المترجمان).

ستقلي الرقائق، خمر التفاح المغطى، يُخرق الغطاء بقشة. من السهل عمل شيء من هذا النوع. العودة الأبدية للمواسم، الأفراح البسيطة وصمت الحقول .

كان أبي يعمل في أرض الآخرين، لم ير جمالها ، فاته رونق «الأرض - الأم» وغيرها من الأساطير.

في حرب سنة ١٤ لم يبق في المزارع سوى الصبية مثل أبي والشيوخ. كان يُعتنى بهم. كان يتابع تقدم الجيوش على خريطة معلقة في المطبخ، ويكتشف المجلات الإباحية ويذهب إلى السينما في ى.. كان الجميع يقرأون بصوت عالٍ النص الذي تحت الصورة، ولا يتمكن الكثيرون من الوصول إلى آخره. كان يردد كلمات العامية التي كان أخوه يعود بها في إجازات الجيش. كان نساء القرية يراقبن كل شهر غسيل زوجات من ذهبوا إلى الجبهة للتأكد من أن لا شيء ينقص، لا أي قطعة من الألبسة.

هزت الحرب الزمن. كانت لعبة النبلة وشرب النبيذ في المقاهي بدلاً من شراب التفاح (السايدر). في حفلات الرقص أخذت البنات يبتعدن عن صبية المزرعة الذين كانت رائحتهم تلازمهم دائماً.

من خلال الجيش دخل أبي العالم. باريس، المترو، مدينة فى منطقة «اللورين» والزي العسكري الذي كان يجعلهم جميعاً متساوين، زملاء قادمون من كل مكان، الثكنات أكبر من قصر. امتلك الحق في تغيير أسنانه المتآكلة من أثر السايدر بطاقم. كثيراً ما كان يطلب أن يُصَوَّر.

عندما عاد، لم يرد الرجوع إلى «الثّقافة»، هكذا كان يسمي عمل الأرض.

المعنى الآخر لكلمة ثقافة، الروحي، لم يكن مجدياً عنده.

بالطبع لا اختيار آخر سوى المصنع. بعد الحرب أخذت ى.. في التصنيع. عمل أبي في مصنع حبال، كان يأخذ الصبية والبنات منذ سن الثالثة عشرة. كان عملاً نظيفاً، بعيداً عن تقلبات الجو. كانت هناك مراحيض وحمامات خاصة لكل جنس. والمواعيد ثابتة. في المساء، بعد الصفارة، كان حراً، ولم يَعُدْ يحس برائحة الألبان على جسده. خرج من الدائرة الأولى. في مدينتي «روان» و«الهافر»، كانت هناك وظائف تمنح أجراً أفضل، كان عليه أن يترك الأسرة، الأم المصلوبة، أن يواجه خبثاء المدينة. كانت تنقصه الجرأة: ثماني سنوات من الحيوانات والحقول.

كان جاداً، أي كعامل لا هو كسول ولا سكير ولا زير نساء. السينما ورقصة الشارلستون، لكن ليس الحانة. يقدره رؤساؤه: لا نقابة ولا سياسة. اشترى لنفسه دراجة، وكان يدخر نقوداً كل أسبوع.

لا شك أن أمي قدرت كل ذلك عندما تعرفت عليه في مصنع الحبال بعد أن عملت في مصنع سمن. كان طويلاً أسمر، أزرق العينين شديد الاستقامة في وقفته، «فرحان» بنفسه بعض الشيء: «جوزي عُمْرهُ ما بَان عليه إنّه عامل».
كانت قد فقدت أباها. وكانت جدتي تنسج في منزلها. تغسل وتكوي

لتكمل تربية آخر الأطفال الستة. يوم الأحد كانت أمي تشترى مع أخواتها كيساً من فتات الحلوى من عند الحلواني. لم يستطيعا أن يعيشا معاً على الفور لأن جدتي لم ترد أن تؤخذ بناتها قبل الأوان. في كل مرة كانت تخسر ثلاثة أرباع الأجر.

نظرت عمّاتي العاملات في بيوت أسر كبيرة إلى أمي بتعالٍ .كانت العاملات في المصانع متهمات بأنهن لا يعرفن كيف يسوين أسرّتهن، وأنهن يمشين على حل شعورهن. في القرية، رأوا أنها قليلة الحياء. كانت تريد أن تنقل موضة المجلات: أول من قصت شعرها وارتدت الثياب القصيرة وزينت عينيها وأظافر يديها. كانت تضحك بصوت عال. في الحقيقة، لم تسمح أبداً بأن تمس في المراحيض، وكانت تذهب إلى القداس كل يوم أحد، وحاكت بنفسها ملاءاتها وطرزت جهازها. كانت عاملة مليئة بالحيوية وطويلة اللسان. إحدى عباراتها المفضلة: «أنا مش أقل من دول».

في صورة الزفاف، تظهر ركبتاها. تحدق في الكاميرا بشدة تحت الطرحة التي تغطي الجبهة إلى ما فوق العينين. تشبه سارا برنارد. يقف أبي بجانبها، شنب قصير، عنق حاد. لا يبتسمان لا هو ولا هي.

كانت دائماً تخجل من الحب، لم يكن بينهما لمسات أو إيماءات حنونة. أمامي، كان يقبلها بحركة خشنة من رأسه على خدها كما لو كان مضطراً. كثيراً ما كان يقول لها أشياء عادية لكن بنظرة ثابتة، فتخفض عينيها وتمنع نفسها من الضحك. عندما كبرت فهمت أنه كان يرسل إليها إيحاءات جنسية. كان يتمتم كثيراً بأغنية **«كلموني عن الحب»**، وكانت تغني - بدلال مثير - في الوجبات العائلية **«هذا جسدي ليحبك»**.

كان قد تعلم الشرط الأساسي كي لا يعيش ثانية بؤس أبويه: ألا يذوب في امرأة.

استأجرا مسكناً في (ي ...) في مجموعة من البيوت المحاذية لشارع كثيف المرور ويطل من الناحية الأخرى على منور مشترك. غرفتان في الطابق الأسفل، غرفتان فوق ولأمي خاصة، حلم «الغرفة العلوية» المتحقق. بما ادخر أبي نالا كل ما يلزم، غرفة للطعام، غرفة نوم بدولاب ذي مرآة. ولدت بنت صغيرة فمكثت أمي في المنزل. كانت تمل. وجد أبي مكاناً بأجر أفضل من مصنع الحبال، عند مسقف أسطح.

كانت فكرتها، يوم أعادوا أبي دون صوت وقد سقط من أعلى سقف كان يرممه، مجرد ارتجاج قوى. الشروع في التجارة. بدآ يوفران من جديد، كثيراً من الخبز ولحم الخنزير. من بين كل أنواع التجارة المتاحة، كان لابد عليهما أن يختارا تجارة لا تقتضي رصيداً ضخماً أو مهارة خاصة، مجرد شراء بضاعة وإعادة بيعها تجارة بسيطة، مكسبها ضئيل. يوم الأحد، ذهبا بالدراجة لزيارة محلات الأحياء الصغيرة والبقالات الريفية، كانا يسألان عما إذا لم يكن هناك منافسون قريبون، خوفاً من أن يُنصب عليهما، ويفقدا كل شيء ويرتدا في

النهاية عمالاً من جديد.

(لـ ...) على بعد ثلاثين كيلو متراً من ميناء «الهافر»، الضباب الجاثم شتاء طوال النهار- خاصة في الجزء الأكثر انخفاضاً من المدينة الموازي للنهر في الوادي. جيتو عمّالي مبني حول مصنع نسيج من أضخم مصانع المنطقة حتى الخمسينات، ملك لأسرة «ديجينتيه»، وفيما بعد اشتراه «بوساك». بعد المدرسة كانت الفتيات يعملن بالنسيج، وفيما بعد كانت حضانة تتلقى أطفالهن منذ السادسة صباحاً. ثلاثة أرباع الرجال كانوا يعملون فيه أيضاً. في أعماق الوادي، المقهى الوحيد. كان السقف واطئاً، في متناول اليد المرفوعة. غرف قائمة تحتاج إلى الكهرباء في عز الظهر، منور صغير، ممر به مرحاض يصب مباشرة في النهر. لم يكونا غير مهتمين بالمنظر. لكنهما كانا في **حاجة للحياة**.

اشتريا حق استغلال المتجر بالتقسيط.

في البداية «بلد العجائب». رفوف من الأغذية والمشروبات، علب المأكولات ولفائف البسكويت. مذهولين أيضاً من ربح النقود الآن بهذه البساطة، مجهود عضلي قليل إلى هذا الحد، تقديم طلب البضاعة، رصها، الوزن، الحساب الصغير. امتنان في الأيام الأولى، عند دق الجرس كانا يقفزان معاً إلى المحل،

يضاعفان الأسئلة الطقوسية: «وايه كمان؟» كانا يتسليان، والناس تناديهما بـ ريّس وريّسَة.

جاء الشك مع أول امرأة قالت بصوت منخفض، بعد أن وضعَت مشترواتها في الحقيبة، أنا مزنوقة شوية دلوقتي، ممكن أدفع يوم السبت. ثم غيرها... وغيرها. الشُكُك أو العودة إلى المصنع. بدا الشكك الحل الأقل سوءا.

للمواجهة، لا رغبات أساساً، لا فواتح شهية ولا معلبات فاخرة باستثناء الأحد. اضطرار لمجافاة الإخوة والأخوات بعد أن أمتعاهم ليظهرا أن لديهما امكانيات. الخوف الدائم من تآكل الرصيد.

في تلك الأيام، كثيراً ما كنت أعود من المدرسة، شتاء، لاهثة، جائعة. لا شيء موقد في بيتنا. كانا، كلاهما، في المطبخ، هو، جالساً قرب المائدة، ينظر من النافذة، وأمي واقفة بجوار وابور الجاز. كانت تسقط عليّ طبقات من الصمت. هو أو هي أحياناً: «لازم نبيع، حنضطر نبيع». لا داعي لأن أبدأ واجباتي. كان الناس يذهبون إلى محلات «الكووب»، و«الفاميليستر»، أي مكان. وكان الزبون الذي يدفع الباب عرضاً يبدي كثيراً من الاستهزاء. يُقابل ككلب، يدفع بدلاً من كل الذين لم يأتوا. كان العالم يهجرنا.

كان مقهى الوادي لا يربح أكثر من أجر عامل. اضطر أبي للعمل في ورشة بناء على السين السفلي. كان يعمل في الماء بأحذية مطاطية كبيرة. لم يكن مطلوباً معرفة السباحة. كانت أمي تقف بمفردها في المحل نهاراً.

نصف تاجر، نصف عامل، محكوم عليه بالوحدة والشك من الناحيتين معاً. لم يكن عضو نقابة، كان يخشى حرس (صليب النار)(*) الذين يسيرون في ل...والحمر الذين سوف يأخذون محله.كان يحتفظ بأفكاره لنفسه. **التجارة لا تحتمل ذلك.**

صنعا جحرهما شيئاً فشيئاً، مرتبطين بالفقر، فوقه بالكاد. كان التقسيط يجمع حولهما عديداً من الأسر العمالية، أكثرها فقراً. يعيشان على احتياج الآخرين، لكن بتفاهم. نادراً ما يرفضان «التقييد على النوتة». لكن يشعران أحياناً أن من حقهما أن **يلقنا المهملين دروساً** أو يهددا الطفل الذي ترسله أمه للحصول على الطلبات بدلاً منها آخر الأسبوع، دون نقود: «قل لأمك يا إمّا تدفع يا إمّا مش حنعاملها تاني». لم يكونا في هذا الجانب الأكثر إذلالاً.

كانت هي ربسة بالكامل، بالأوفرول الأبيض. كان هو يحتفظ بالأزرق للخدمة. لم تكن تقول مثل غيرها من النساء «جوزي حيتخانق معايا إذا اشتريت دا أو رحت هنا ولا هنا». كانت **تعاركه** كي يعود إلى القداس الذي كف عنه وهو في الجيش، وكي يكف عن **عاداته السيئة** (أي عادات الفلاح والعامل). كان يترك لها مهمة الطلبات وأرقام الحسابات. كانت امرأة تستطيع أن تذهب إلى أي مكان، وبمعنى آخر، أن تتجاوز الحواجز الاجتماعية. كان معجباً بها، لكنه كان يسخر منها عندما تقول «أخرجت ريحاً».

اشتغل بمعمل ستاندرد لتقطير البترول، في مصب السين. كان يملأ أرباع الجالونات. فى النهار لا يستطيع النوم بسبب الزبائن. كان يتورم، رائحة البترول لا تتركه، كانت بداخله وتغذيه. كف عن الطعام. كان يكسب كثيراً، وكان ثمة

(*) جماعة ذات نزعة فاشية انتشرت فى الثلاثينات (المترجمان).

مستقبل . يوعد العمال بمدينة بارعة الجمال ذات حمامات ومراحيض بداخلها ، وحديقة.

في الوادي، كان ضباب الخريف يجثم طوال النهار. مع الأمطار الشديدة، كان النهر يغرق الدار. ليتخلص من فئران الماء، اشترى كلبة ذات شعر قصير كانت تنهش أعناقهم بنابها .

«كان هناك من هو أكثر بؤساً منا »

٣٦، ذكرى حلم، الاندهاش بسُلطة لم يتصورها ، واليقين المستسلم بأنهم لن يحتفظوا بها .

لم يُغلق المقهى أبداً. كان يقضي إجازاته في الخدمة. كانت العائلة دائماً «تطب» عليهم. وكانوا سعداء بإعلان مظاهر الرخاء أمام الأخ النحّاس أو موظف السكة الحديد. من ورائهما كانا يتهمان بالثراء، سُبّة.

لم يكن يشرب. كان يحاول أن **يملأ مكانه**. أن يبدو تاجراً أكثر منه عاملاً. في التقطير رقي إلى رئيس ورشة.

اكتب ببطء. أحاول أن أكشف عن النسيج الدال على حياة، بمجموعة من الوقائع والاختيارات، لدي الانطباع أنني، تدريجياً، أفقد الوجه الخاص لأبي. يميل التصور لأن يأخذ المكان كله، والفكرة تجري وحدها. لو تُركَت، على العكس، صور الذاكرة تنساب، لرأيته كما كان، ضحكته، مشيته، يقودني من يدي إلى الملاهي وأفزع من المراجيح، تصير غير ذات أهمية كل السمات التي تميز وضعاً نشترك فيه مع آخرين. في كل مرة أنزع نفسي من فخ الفردي.

بالطبع، لا سعادة بالكتابة، في هذا المشروع الذي أكون فيه أقرب ما يمكن إلى الكلمات والجمل التي سمعتها، وأبرزها أحياناً بالخط المُمَيَّز. ليس من أجل أن أعطي القارئ معنى مزدوجاً ومتعة تواطئية أرفضها بجميع أشكالها، الحنين، المأساوية أو السخرية. فقط لأن هذه الجمل تقول حدود ولون العالم الذي عاش فيه أبي وعشت فيه أيضاً. وفيه لا تستبدل، أبداً، كلمة بأخرى.

في يوم عادت الطفلة من المدرسة بألم في حلقها. لم تهبط الحمى. كانت الدفتريا. مثل غيرها من أطفال الوادي، لم تكن قد طُعِّمت. كان أبي في العمل عندما ماتت، وحين عاد كان صياحه يسمع من أول الشارع. ذهول لمدة أسابيع، نوبات من الحزن بعد ذلك، كان يمكث دون كلمة، ينظر عبر النافذة من مكانه

بجوار المائدة، **كان يلطم** لأتفه الأسباب. كانت أمي تحكي وهي تمسح عينيها بخرقة أخرجتها من جيبها: «ماتت في السابعة، كقديسة صغيرة».

صورة أخذت في الممر الصغير على ضفة النهر. قميص أبيض مشمور الكمين، بنطال من صوف الفانلة، الأكتاف متهدلة، الذراعان مستديران إلى حدما. يبدو غير راض لأن الكاميرا - ربما - قد التقطت الصورة قبل أن يستعد. هو في الأربعين من عمره. لا شيء في الصورة يعبر عن التعاسة الماضية، أو الأمل. فقط علامات الزمن الواضحة: كرش صغير، والشعر الأسود الذي بدأ يتساقط من مقدمة الرأس، وهذه، الأكثر خفاء ناتجة من الوضع الاجتماعي: الذراعان المرتخيان، والمراحيض والمغسل الذي لم تكن عين برجوازية صغيرة لتختاره خلفية لصورة.

في ١٩٣٩، لم يُستَدعَ، كان قد شاخ بسرعة. حرق الألمان معامل التقطير فهرب إلى الطريق بدراجة، أمَّا هي فقد أتيح لها مكان في سيارة. كانت حاملاً في الشهر السادس. في «بونت - أودمير» تلقى شظايا قذائف في وجهه وعولج في الصيدلية الوحيدة المفتوحة. كان القصف مستمراً. قابل حماته وأخوات زوجته مع أطفالهن وصررهن على سلالم كنيسة ليزيو، التي بدت هي وساحتها كتلة سوداء من الفارين. كانوا يظنون أنهم بأمن. عندما أدركهم الألمان، عاد إلى (لـ...) كانت البقالة قد سرقت بأكملها، بأيدى من لم يتمكنوا

من الرحيل. عادت أمي بدورها وولِدتُ في الشهر التالي.

في المدرسة عندما لم نكن نفهم مسألة، كنا نُسمَّى بأطفال الحرب.

حتى منتصف الخمسينيات، في احتفالات التناول، وسهرات عيد الميلاد سوف تُرتل بأصوات متعددة ملحمة هذه الفترة، دائمة التكرار، ودائماً موضوعات الخوف، الجوع، البرد، فى شتاء ١٩٤٢. **ورغم كل شيء ينبغى أن نحيا**. كان أبي يُحْضر كل أسبوع من مستودع على بعد ثلاثين كيلو متراً من ل... البضائع التي لم يعد بائعو الجملة يوزعونها، في عربة تشدها دراجته. تحت القصف المتوالي على هذا الجزء من «النورماندي» في ١٩٤٤، استمر يذهب لوكالة الغوث ملحاً في طلب المزيد من أجل العجائز والأسر العديدة، لكل من هم أفقر من مستوى السوق السوداء. اعتُبر في الوادي بطل الإغاثة. ليس اختياراً بل ضرورة. فيما بعد، اليقين بأنه لعب دوراً، أنه عاش حقاً في هذه السنوات.

يوم الأحد، كانا يغلقان المحل، يتنزهان في الغابات، ويأكلان على الأرض حلوى أعدت بلا بيض. كان يحملني على كتفيه، وهو يغني ويصفر. وعند الإنذار، كنا نختفي تحت مائدة بلياردو المقهى مع الكلبة. ما يعني كل ذلك فيما بعد، الشعور أنه «كان النصيب». عند التحرير علمني كيف أغني نشيد «المارسييز» ويضيف في آخره «يا كتلة خنازير» لتجانسها مع «سبيل». مثل الآخرين حوله، كان في غاية المرح. عندما كانت طائرة تُسمع، كان يأخذني من يدي إلى الشارع ويقول لي انظري إلى السماء، الطيور: كانت الحرب قد انتهت.

في موجة الأمل العام سنة ١٩٤٥، قرر أن يترك الوادي. كثيراً ما كنت أمرض، فرأى الطبيب أن أذهب إلى مصحة. باعا المحل ليعودا إلى (يـ ...) التي بدا لهما أن رياحها وعدم وجود نهر أو نهير مفيد للصحة. وصلت الشاحنة التي جلسنا في مقدمتها في خضم سوق اكتوبر. كان الألمان قد أحرقوا المدينة، والعشش والمراجيح قائمة وسط الأنقاض. عاشا لمدة ثلاثة أشهر في غرفتين مفروشتين دون كهرباء وبأرضية ترابية، أعارهما إياهما أحد أفراد العائلة. ليس ثمة أي متجر يناسب إمكانياتهما. عمل أجيراً لدى مجلس المدينة لسد حفر القذائف. في المساء، كانت تقول، مستندة إلى حاجز الخرق المحيط بالمواقد القديمة «أمًا دا وضع». لم يكن يجيب أبداً. في الظهيرة كانت تقودني في المدينة كلها للنزهة. كان وسطها فقط قد دمر، واستقرت المحلات في بيوت الناس.

مقياس الحرمان، صورة: في يوم وقد استقر سواد الليل، في معرض بضائع، على نافذة صغيرة، هي الوحيدة المضاءة في الشارع، تلمع باستيليات وردية، مغلفة ببودرة بيضاء، في أكياس من السيلوفان. لم يكن لنا أن ننالها، كانتبالبطاقة.

وجدا محلاً لمقهى ولبقالة وخشب وفحم في حي منحرف عن وسط المدينة، في منتصف الطريق بين المحطة والملجأ. إلى هذا المكان كانت تذهب أمي قديماً وهي طفلة صغيرة لتشتري حاجات البيت. بيت ريفي غيرته بناية في طرفه بالطوب الأحمر، ذو حوش كبير، حديقة ونصف دستة من البنايات تستخدم كمخازن. في الدور الأرضي كانت البقالة تتصل بالمقهى عبر غرفة صغيرة للغاية حيث يقوم سلم مؤدٍ إلى الغرف والصندرة، ورغم تحول هذا المكان إلى المطبخ، كان الزبائن يستعملونه دائماً للمرور بين البقالة والمقهى. على درجات السلم. على عتبة الغرف كانت تخزن البضائع التي يُخشى عليها الرطوبة، البن، السكر. في الدور الأرضي لم يكن ثمة أي مكان خاص. كانت المراحيض في

الحوش. النهاية: **كنا نعيش في الهواء الطلق.**

هنا تنتهي حياة أبي كعامل.

كان كثير من المقاهي قريباً من مقهاه، ولكن لم تكن ثمة بقالة أخرى في المنطقة الواسعة المحيطة. استمر وسط المدينة محطماً لمدة طويلة، وبقالات ما قبل الحرب الجميلة تخيم فى قشلاقات صفراء. **لا أحد يستطيع أن يضرهم.** (هذه العبارة لا تنفصل مثل كثير غيرها من العبارات عن طفولتي، ولا أستطيع أن أجردها من التهديد الذي حملته آنذاك إلا بجهد فكريّ).

لم يكن سكان الحي عمالاً متجانسين كسكان (لـ ...)، كانوا حرفيين، موظفين في شركة الجاز أو المصانع المتوسطة وأصحاب معاشات من النوع (المحدود اقتصادياً). بين الناس المسافات أكبر. بيوت صغيرة من الطوب اللبن معزولة بأسوار بين مجموعات من خمسة مساكن أو ستة ذات طابق واحد ونشترك فى حوش واحد. في كل مكان حدائق صغيرة للخضروات.

مقهى للمترددين الدائمين، يأتون بانتظام ليشربوا قبل العمل أو بعده، حيث مكانهم مقدس، ورديات الورش، وبعض الزبائن الذين كان من الممكن **نظراً لوضعهم**، أن يختاروا مكاناً أقل شعبية، ضابط بحري على المعاش، مفتش في التأمين الاجتماعى، أناس غير **متعالين** إذن.

زبون الأحد، مختلف، عائلات كاملة لأجل فواتح الشهية، شراب الرمان للأطفال، حول الحادية عشرة. بعد الظهر، عجائز الملجأ أحرار حتى السادسة. مرحون وصاخبون ينطلقون فى المواويل. أحياناً كان ينبغي نقلهم إلى مبنى بالحوش، فوق بطانية حتى يزول أثر جرعات الخمر الزائدة قبل إعادتهم إلى الراهبات في حالة مقبولة. المقهى يكون لهم الأسرة يوم الأحد. وعىَ أبي أن لديه دوراً اجتماعياً ضرورياً، أن يقدم مكاناً للاحتفال وللانطلاق لكل من كان يقول عنهم «ماكانوش طول عمرهم كده» دون قدرةٍ على أن يفسر بوضوح لماذا أصبحوا كذلك. لكنها كانت، بالطبع، بالنسبة لمن لمْ يضعوا أقدامهم فيها أبداً «خمارة قاتلة». لدى خروجهن من مصنع الملابس الداخلية المجاور، كانت الفتيات يأتين للاحتفال بـ «رشة» أعياد الميلاد والأفراح والسفريات. كن يأخذن من البقالة لفائف البسكويت الناعم ليغمسنها في النبيذ الأبيض المسكّر، وينفجرن في نوبات من الضحك وقد انحنين فوق المائدة.

ممر ضيق في الكتابة بين رد الاعتبار لنمط حياة ينظر إليه على أنه أدنى، وبين فضحٍ للاغتراب الذي يصاحبه. لأن هذه الطرق للحياة كانت طرقنا، وحتى سعادةً لنا، ولكن أيضاً كانت الحدود المهينة لوضعنا (الوعي بأن «الأشياء ليست بالجودة الكافية لدينا»)، أريد أن أقول السعادة والاغتراب في آن. بالأحرى، انطباع بالتأرجح بين طرف وآخر في هذا التناقض.

حوالي الخمسين، قوة العمر ما تزال، الرأس في غاية الاستقامة، الهيئة مهمومة كأنه يخشى أن تخيب الصورة، يرتدي حلة، البنطال غامق والسترة فاتحة فوق قميص وربطة عنق. صورة التقطت يوم أحد، خلال الأسبوع كان يرتدي الأوڤرول الأزرق. على كل حال، كان التصوير يتم يوم الأحد، وقت أوسع، لبس أفضل. أظهر بجواره، بثوب ذي كرانيش، ذراعاي ممدودتان فوق مقود دراجتي الأولى، ساق على الأرض. هو بيد متدلية والأخرى فوق حزامه. في الخلفية، باب المقهى المفتوح، زهور على حافة النافذة وفوقها لوحة ترخيص الخمور. تؤخذ الصور مع ما يُفْتَخر بامتلاكه، المتجر، الدراجة، وبعد ذلك السيارة الرينو الصغيرة، التي يُسند يداً على سطحها، وهذه الحركة ترفع سترته أكثر من اللازم. لا يضحكَ في أية صورة.

بالنسبة لسنوات الشباب، الثلاث ورديات فى مصانع التكرير، فئران الوادي، وضوح السعادة.

كان لدينا **كل ما يلزم**، يَعْني ذلك أننا كنا نأكل على قدر جوعنا (الدليل: شراء لحمة من الجزارة أربع مرات في الأسبوع)، وكانت التدفئة في المطبخ والمقهى، الغرف الوحيدة التي كنا نعيش فيها. رداءان، واحد لكل الأيام، والآخر ليوم الأحد (وعند استهلاك الأول، فإن رداء الأحد ينقل للبس كل يوم). كان لديّ مريلتان للمدرسة. **البنت مش محرومة من أى حاجة.** في المدرسة الداخلية، لم يكن يمكن القول أنّ لديّ **أقل من الأخريات** كان لديّ مثل بنات المزارعين أو الصيدلي من عرائس وأساتيك وبرايات وأحذية مبطنة للشتاء ومَسْبحة وكتاب روماني لصلوات العصر.

استطاعا تجميل البيت، إلغاء كل ما كان يُذكّر بالزمن الماضي، عروق الخشب الظاهرة، المدفأة، الموائد الخشبية، وكراسي القش. أصبح المقهى نظيفاً ومرحاً بزهور ورق الحائط والبار المطلي اللامع، والموائد والطاولات من المرمر

المقلد. مربعات كبيرة صفراء وبنية من اللينوليوم* غطت باركيه الغرف. الهم الوحيد الذي بقيَ لمدة طويلة، كان الواجهة التي ظلت بخطوطها البيضاء والسوداء، دون طلاء، لأن طلاءها كان يتجاوز امكانياتهما.

قالت إحدى مدرساتي إذ مرت أمام البيت ذات يوم إنه جميل، بيت «نورماندى» حقاً. ظن أبي أنها تجامل. وكأن هؤلاء الذين يعجبون بأشيائنا القديمة، طلمبة الماء في الحوش، الواجهة «النورماندية»، يريدون، بالتأكيد، منعنا من امتلاك ما يمتلكونه هم من مستحدثات: الماء فوق الحوض، وبيت أبيض.

اقترض ليصبح مالكاً للجدران والأرض. لا أحد في العائلة كان مالكاً قط.

وراء السعادة، انقباض الرخاء المقتنص. **ماليش أربع ايدين ماعنديش وقت علشان أروح الحمام. أنا باخذ الانفلونزا وأنا ماشي**.الخ. نغمة يومية.

كيف توصف رؤية عالم كل شيء فيه **باهظ الثمن**. رائحة الغسيل النظيف في صباح من أكتوبر، آخر أغنية تدوي في الرأس من المذياع. فجأة. يتمزق ثوبي الذي اشْتَبَك جيبه بمقبض الدراجة. المأساة، الصراخ، انتهى اليوم. «**العيلة دي مابتحاسبش على حاجة!**».

(*) نوع من غطاء الأرضيات أشبه بالقنالتكس (المترجمان).

التقديس الإجباري للأشياء. وراء كل كلام من هذا أو ذاك، ومني، توقع الحسد والمضاهاة. عندما كنت أقول: «فيه بنت راحت تزور قصور نهر اللوار»، كانوا، تواً، يغضبون: «بكرة تروحي. افرحي باللي عندك». عَوَزٌ مستمر، دون قرار.

لكنها الرغبة من أجل الرغبة، بسبب جهل في الأعماق بما هو جميل، ما ينبغي أن يُحَبّ. كان أبي يسلم دائماً بنصائح النقّاش والنجار بشأن الألوان والأشكال، **اللى ماشى**. الجهل حتى بفكرة امكانية أن يحيط الإنسان نفسه بأشياء اختارها واحداً فواحداً. في غرفتهم، لا زينة، فقط صور في أطرها، مفارش صغيرة صنعت لأعياد الأم، وأعلى المدفئة تمثال بالسيراميك للجزء الأعلى من جسم طفل، أضافه بائع الأثاث كهدية عند شراء ركن كنبة بمكتبة.

مثل دارج: **على قد لحافك مدّ رجليك.**

خوف أن نكون **في غير مكاننا**، أن نخجل. ذات يوم ركب خطأ في الدرجة الأولى بتذكرة الدرجة الثانية. جعله المفتش يدفع الفرق. ذكرى أخرى للخجل: عند مسجل العقود، كان عليه أن يكتب هو أولاً. «قرئ وقُبل» لم يكن يعرف الإملاء فأخطأ وكتبها «قوبل». في طريق العودة الحاح هذه الغلطة ضيق. ظل المهانة.

في أفلام تلك الفترة المضحكة، كان هناك كثيرون من الأبطال السذّج والريفيين يسيئون التصرف في المدينة أو في الأوساط الاجتماعية: أدوار «بورڤيل». كان الناس يضحكون حتى تنهمر الدموع من السفاهات التي يقولونها، والأفعال غير اللائقة التي كانوا يجرؤون عليها، والتي كانت تمثل ما كانوا يخافون هم أنفسهم من فعله. قرأت مرة أن «بيكاسين» وهي تتدرب، كان عليها أن تطرز عصفوراً على مرولة أطفال **ومثله** على المراول الأخرى،

فكتبت «**مثله**» مستخدمة غرزة الحشو. لست متأكدة لو أنني كنت مكانها، ما كنت طرزت «**مثله**».

أمام الأشخاص الذين كان يُعتقد أنهم مهمون، كان لديه جمود خجول، لا يسأل أبداً أي سؤال. أي يتعامل بذكاء. وهذا معناه أن ندرك نقصنا وأن نرفضه بإخفائه قدر المستطاع. قضينا سهرة كاملة نتساءل عما كانت الناظرة تعنيه حينما قالت: «لهذا الدور، ستكون ابنتكم الصغيرة في **زي المدينة**». خجل الجهل بما كان من الضروري أن نعرفه لو لم نكن ما كناه، أي أدنى.

إلحاح: «**حيقولوا علينا أيه؟**» (الجيران، الزبائن، كل الناس).

قاعدة: التحايل دائماً على نظرة الآخرين النقدية، بالتأدب، بعدم إبداء الرأي، بالانتباه الدقيق للأمزجة التي قد تَمسك. لم يكن ينظر إلى خضروات حديقة يعزقها صاحبها دون أن يُدْعَى إلى ذلك، بإيماءة، ابتسامة أو كلمة صغيرة. لا زيارة أبداً، وحتى لمريض في عيادة، إلا إذا دُعي إلى ذلك. لا سؤال قد يبدو فضولاً أو حسداً يعطيان للمتحدث حجة علينا. جملة ممنوعة: «جبْتُه بكام؟».

الآن كثيراً ما أقول «نحن»، لأنني فكرت بهذه الطريقة لمدة طويلة، ولا أدري متى كففت عن ذلك.

كانت اللهجة الاقليمية هي اللغة الوحيدة لأجدادي.

ثمة بشر يتذوقون «بهاء اللهجة الاقليمية» والفرنسية الشعبية. كذلك كان بروست ينقل باستمتاع أخطاء «فرانسواز» وكلماتها القديمة. لا تهمه غير الجماليات لأن «فرانسواز» خادمته وليست أمه. ولأنه لم يشعر قط بهذه التركيبات ترد تلقائياً على لسانه.

بالنسبة لأبي، كانت اللهجة الإقليمية شيئاً قديماً وقبيحاً، علامة تدن. كان فخوراً أنه تخلص منها جزئياً، حتى لو لم تكن فرنسيته جيدة، فهي فرنسية على كل حال. في مهرجانات (يـ ...) كان طليقو اللسان، متنكرين في زي

«نورماندي»، يمثلون «سكتشات» باللهجة الإقليمية، وكان الجمهور يضحك. كان بالصحيفة المحلية باب «نورماندي» لتسلية القراء. عندما كان الطبيب أو أي شخص في **مكان عالٍ** يُسرِّب في حديثه عبارة من منطقة «كو» مثل «تفَسِّي» بدلاً من «صحته جيدة» كان أبي يردد لأمي جملة الطبيب، مبتهجاً، سعَيداً بأن شيئاً مشتركاً ما زال يجمعنا بهؤلاء الناس، رغم أناقتهم، نقص صغير. كان مقتنعاً أن ذلك قد خرج منهم فُلتةً، لأنه قد بدا له دائماً أنه من المستحيل أن يتحدث البشر «جيداً» بالسليقة. كان على الإنسان، طبيباً أو قسيساً، أن يضغط على نفسه، يستمع إلى نفسه، وألا يترك نفسه على طبيعته إلاَّ في بيته.

ثرثار في المقهى، مع أهله، كان يصمت أمام الذين يجيدون الحديث، أو يقف في وسط الجملة، قائلاً: «مش كده» أو فقط «كده» بحركة من يده تدعو المتحدث إلى أن يفهم ويستمر بدلاً منه. الكلام دائماً باحتراز، الخوف الذي لا يقال من الكلمة الغلط، سيئة الأثر مثل الفساء.

غير أنه كان يبغض أيضاً الجمل الكبيرة والعبارات الجديدة التي «لم تكن تعنى شيئاً». في فترة كان كل الناس يقولون «لا بالتأكيد» بمناسبة وبدون مناسبة. لم يكن يفهم أن تجتمع كلمتان متناقضتان. على العكس من أمي التي كانت حريصة على أن تبدو متطورة، والتي كانت تجرؤ على التجريب، مع شيء من التردد، فيما سمعته أو قرأته تواً، كان هو يرفض استخدام مفردات ليست مفرداته.

وأنا طفلة، كنت أشعر بأنني ألقي بنفسي في الفراغ حينما اجتهد في التعبير عن نفسي بلغة منقحة.

أحد مخاوفي المتخيَّلة، أن يكون لي أب معلم يجبرني على أن أتحدث، دون توقف، مع تمييز الكلمات. كان الحديث بالفم كله.

وحيث أن المدرِّسة كانت «تصحح» لي، أردت فيما بعد أن أصحح لأبي، أن أوضح له أن «التأرض» أو أن «الساعة ربع إلا الحادية عشرة» **غير موجودتين**. ذات مرة غضب غضبة شديدة. مرة أخرى: «كيف تريدون ألا

يصحح لي، وأنتم تتحدثون خطأ طوال الوقت». كنت أبكي. كان تعيساً. كل ما يمس اللغة في ذاكرتي سببُ غلٍ ومشاحنات أليمة، أكثر كثيراً من النقود.

كان مرحاً.

كان يمزح مع العميلات اللاتي يحببن الضحك. مزاح فاحش مُغَلَّف ابتذال. التهكم غير معروف. من المذياع كان يختار برامج الأغاني الخفيفة، الألعاب. ومستعد دائماً أن يأخذني إلى السيرك، الأفلام التافهة، الألعاب النارية. في الملاهي، كنا نركب القطار الشبح، الهملايا، وندخل لنرى أضخم امرأة في العالم، والقزم «الليليو بوطي».

لم يدخل متحفاً بالمرة. كان يقف أمام حديقة جميلة، أشجار مزهرة، خلية نحل، وينظر إلى الفتيات الممتلئات القوام. كان يعجب بالبنايات الضخمة، الأعمال الحديثة الكبيرة (كوبرى تانكارفيل). كان يحب موسيقى السيرك، النزهات في الريف بالسيارة، وهذا معناه أنه كان يبدو سعيداً حين يتأمل الحقول، غابات الزان، ويستمع إلى فرقة «سيرك بوجليون» الموسيقية. الانفعال الذي يشعر به الإنسان وهو يستمع إلى موسيقى أو أمام مشاهد طبيعية، لم يكن موضوعاً للحديث. عندما أخذت أتعامل مع البرچوازية الصغيرة في (يـ...)، كنت أسأل في البداية عن أذواقي، «الچاز» أم الموسيقى الكلاسيكية، أفلام «تاتي» أم «رينيه كلير»، وكان هذا كافياً لأن أفهم أنني انتقلت إلى عالم آخر.

أخذني، صيفاً، لمدة ثلاثة أيام عند أهله على شاطئ البحر. كان يمشي بصندل وساقاه عاريتان، يقف عند مداخل البلوكات(*)، يشرب البيرة على أرصفة المقاهي وأشرب أنا الصودا. من أجل عمتي، ذبح دجاجة، ممسكاً بها بين ساقيه، غارساً المقص في منقارها بينما كان الدم الثخين ينقط على أرض المخزن. كانوا يبقون جميعاً حول مائدة الطعام حتى العصر، يتذكرون الحرب، الأهل، يمررون الصور حول الأكواب الفارغة. «عندنا وقت لغاية ما نموت، أهي ماشيه!».

رغم كل شيء، ربما ميل عميق ألا يحمل هماً. ابتكر لنفسه مشاغل تبعده عن التجارة. تربية دجاج وأرانب، بناء ملاحق، جراج. كثيراً ما تغير ترتيب البيت حسب مزاجه. انتقلت المراحيض وعشة الدجاج ثلاث مرات. دائماً الرغبة في الهدم وإعادة البناء.

أمي: «دا فلاح. عاوزين إيه».

كان يعرف الطيور من غنائها وينظر إلى السماء كل مساء ليعرف الطقس القادم، بارد وجاف إذا كانت حمراء، مطر ورياح إذا كان القمر في الماء، أي غارق في السحاب. كل يوم ينسحب، عصراً، إلى حديقته، دائماً منمقة.

(*) Blockhaus كلمة ألمانية تشير إلى نوع من المباني المسلحة التى أقامها الألمان في الحرب العالمية الثانية على الشواطئ الفرنسية لمراقبة سفن الحلفاء (المترجمان).

امتلاك حديقة قذرة، بخضروات غير معتنى بها، كان يشير إلى إهمال غير مقبول، مثل إهمال الإنسان لنفسه أو الشرب الزائد. كان ذلك يعنى فقدان مفهوم الزمن، زمن غرس النباتات في الأرض، القلق مما يعتقد الآخرون. أحياناً كان سكيرون مشهورون يعوضون سمعتهم بحديقة جميلة يزرعونها بين سكرتين. عندما كان أبي يفشل في زرع الكرات، أو أي شيء آخر، كان يشعر باليأس. وفي نهاية اليوم، كان يفرغ «دلو الليل» في آخر خط حرثه المحراث، يغضب إذا وجد وهو يسكبه، جوارب قديمة أو أقلام جافة كنت قد رميتها هناك كسلاً عن أن أنزل إلى صندوق القمامة.

للطعام لم يكن يستخدم إلا مطواة «الأوبينيل». كان يقطع الخبز إلى مربعات صغيرة ويضعها بجوار طبقه كي يغمس بها الجبن ولحم الخنزير المقدد. أن يراني أترك طعاماً في الطبق يعني الموت بالنسبة له. كان من الممكن أن يعيد طبقه بعد الطعام دون غسيل. بعد الأكل كان يمسح سكينه في الأوفرول الأزرق. وإذا أكل رنجة، يدفسه في الأرض ليزيل عنه الرائحة. حتى أواخر الخمسينيات، كان يتناول شربة في الصباح، استسلم بعد ذلك للقهوة بالحليب بتحفظ كأنه يضحى من أجل رهافة نسائية. كان يشربها ملعقة بعد ملعقة ويشفط كأنها شربة. في الخامسة كان يصنع لنفسه وجبة من البيض والفجل والبطاطس المسلوقة، أما في المساء فكان يكتفي بشربة خضار. كان يتقزز من «المايونيز» والصلصات المعقدة وأصناف «الجاتوه».

كان ينام دائماً بقميصه وفانلته. وكي يحلق ذقنه ثلاث مرات في الأسبوع، في حوض المطبخ الذي كانت فوقه مرآة، كان يفك أزرار ياقته، وأرى لحمه شاهق البياض بدءاً من رقبته. وكانت الحمَّامات، علامات غنى، قد بدأت تنتشر بعد الحرب، فأقامت أمي حماماً صغيراً في الدور الأعلى، لم يستخدمه قط، واستمر يغتسل في المطبخ.

في الحوش، شتاء، كان يستمتع بأن يبصق ويعطس.

هذه اللوحة كنت قد استطعت أن أرسمها من قبل، في حصة الإنشاء في المدرسة، لو لم يكن وصف ما أعرفه ممنوعاً. ذات يوم طارت كراسة بنت في الابتدائي نتيجة عطسة عظيمة. استدارت المدرِّسة من أمام السبورة: «جميل، حقاً».

لا أحد في (يـ ...) من أبناء الطبقات الوسطى، تجار وسط المدينة، موظفو المكاتب، يريد أن يبدو كمن «جاء من القرية». أن تبدو فلاحاً يعني أنك لست متطوراً، دائماً متأخر عما يجري، في الملبس واللغة والمظهر. نكتة كانت تعجب الكثيرين: فلاح، في زيارة لابنه في المدينة، يجلس أمام الغسالة الكهربائية التي تدور ويظل متأملاً الغسيل الذي يُعصر وراء الفجوة، وفي النهاية يهز رأسه ويقول لزوجة ابنه: «قولوا زى ما تحبو. التليفزيون ده اختراع فاشل».

غير أنه في (يـ ...) كان الانتباه أقل لسلوك المزارعين الكبار الذين كانوا يصلون إلى السوق بسيارات «الڤيديت» الفاخرة ثم الـ DS والآن الـ CX. الأكثر سوءا كان أن تمتلك حركات الفلاح وهيئته دون أن تكونه.

كان هو وأمي يتحدثان باستمرار بنغمة العتاب، حتى في اهتمامهما ببعضهما البعض. «خد الكوفية وانتا خارج» أو «ما تقعدي شوية»، كانت تبدو كشتائم. لا يكفّان عن الشجار حتى يعرفا من ضيع فاتورة تاجر المشروبات أو

نسي إطفاء نور المخزن. كانت تصرخ أعلى منه لأن كل شيء كان **«يبوظ أعصابها»**. التأخير في التسليم، سخونة جهاز تجفيف الشعر عند الحلاق، العادة الشهرية، الزبائن. أحياناً: «ماتولدتش للتجارة» (يُفهم: كان ينبغي أن تبقى عاملاً). بتأثير الشتيمة، خروج عن هدوئه المعتاد يالبوة! يا ريتني كنت سبتك مطرح ما كنت» تشاتم اسبوعي: انت ولا حاجة! مجنونة!

راجل بايخ! شرموطة!

وغيرها دون أية أهمية.

لم نعرف كيف نتحدث مع بعضنا البعض إلا متذمرَيْن. النغمة المهذبة للأغراب. عادة متأصلة إلى درجة أن أبي، عندما كان يَحاول أن يعبر عن نفسه كما ينبغي في صحبة الناس، لكي يمنعني من الانزلاق على كوم من الزلط، يستعيد نغمته الجافة. وكانت لهجته وشتائمه «النورماندية» تدمر الأثر الطيب الذي كان يحاول أن يوصله. لم يتعلم قط كيف يوبخني بأناقة ولم أكن لأقتنع إذا هددني بعلقة بلغة سليمة.

ظل الأدب بين الأبوين والأطفال لغزاً بالنسبة لي لمدة طويلة. قضيت سنوات أيضاً كي «أفهم» اللطف المبالغ فيه الذي يظهره الناس المهذبون في مجرد إلقاء تحية الصباح. كنت أخجل، لا أستحق كل هذه الرعاية، كنت أصل إلى حد تصور تعاطف خاص بي. ثم أدركت أن هذه الأسئلة التى تُسأل بهذا الاهتمام المفرط، هذه الابتسامات، ليس لها معنى أكثر من الأكل بفم مغلق أو التمخط دون صوت.

يفرض نفسه عليَّ الآن فهم هذه التفاصيل، بضرورة يزيد منها أنني قد كبتُّها، مقتنعة بعدم أهميتها. ولم تحافظ عليها إلا ذاكرة مهانة. لقد خضعت لرغبة العالم الذي أعيش فيه، والذي يعمل على أن ينسيك ذكريات العالم

الأدني كأنها ضرب من ذوق رديء.

عندما كنت أذاكر دروسي على مائدة المطبخ في المساء، كان يتصفح كتبي وخاصة التاريخ والجغرافيا والعلوم. كان يحب أن أطرح عليه الأسئلة العويصة. ذات يوم طلب مني أن أمليه، كي يثبت لي أنه لا يخطئ في الكتابة. لم يكن يعرف أبداً في أي صف كنت، كان يقول: «هي عند الأبْلَة فلانة». كانت المدرسة - مدرسة راهبات اختارتها أمي- بالنسبة له عالماً مريباً يطفو فوقي مثل جزيرة «لابوتا» في **رحلات جاليفر**، ليقود سلوكي وحركاتي: «شيء جميل! لو شافتك المدرسة!» أو «هاروح أقابل مدرستك، عشان تخليك تسمعي الكلام!».

كان يقول دائماً **مدرستك** وينطق «الـ دا خـ لية»، والعزيزة «سور» (لقب الناظرة) فاصلاً بين المقاطع بأطراف شفتيه، في احترام مدَّعىً، كأن النطق الطبيعي لهذه الكلمات يفترض ألفة مع المكان المغلق الذي تشير إليه، لا يشعر أنها من حقه. كان يرفض الذهاب إلى حفلات المدرسة حتى عندما كنت أشترك في التمثيل. كانت أمي تحتج: **«مافيش سبب يخليك ما تروحش»**. هو: «انت عارفة إن عمري ما بروح **الحاجات دي**».

في الغالب جاد، تقريباً مأساوي: «انتبهي كويس في مدرستك». الخوف من أن تزول فجأة هذه الهبة الغريبة من القدر: درجاتي الممتازة، كل اختبار ناجح، وبعد ذلك كل امتحان **شيء يكتسب**، الأمل أنني سوف **أكون أحسن منه**.

متى أُستُبْدِل هذا الحلم بحلمه الخاص،الذي اعترف به مرة، أن يكون لديه مقهى جميل فيَ قلب المدينة، برصيف، وزبائن من المارة، وآلة كهربائية للقهوة على البار. نقص في الرصيد، خشية من البدء مرة أخرى، خضوع. **هو كده.**

لن يخرج بعد ذلك من عالم التاجر الصغير المقسوم إلى نصفين. من ناحية «الطيبون»، هؤلاء الذين يشترون من عنده، من الناحية الأخرى «السيئون»، الأغلبية، الذين يذهبون إلى أماكن أخرى، في محلات وسط المدينة التي أعيد بناؤها. يضاف إلى هؤلاء، الحكومة التي يُعتقد أنها تريد موتنا إذ تفضل **الكبار**. حتى في الزبائن الطيبين، ثمة خط يفرقهم، الطيبون الذين يأخذون كل مطالبهم من البقالة، والسيئون الذين يهينوننا حين يأخذون من عندنا لتر الزيت الذي نسوا شراءه من المدينة. أيضاً الحذر من الطيبين، دائماً مستعدون للخيانة، معتقدين أنهم يُسرقون. العالم كله متحالف. البغضاء والمذلة. بُغض المذلة. في أعماقه أمنية أي تاجر، أن يكون وحده في مدينة يبيع بضائعه. كنا نذهب لنشتري الخبز من على بعد كيلو متر من البيت، لأن الخباز الذي بجوارنا لا يشتري شيئاً من عندنا.

أعطى صوته لـ «پوچاد»[1] لا اقتناعاً وإنما حيلة خبيثة يلعبها، فهو «كلمنجي كبير» بالنسبة له.

مع ذلك لم يكن تعيساً. دفء قاعة المقهى دائماً، المذياع في الخلفية، تتابع الزبائن من السابعة صباحاً حتى التاسعة مساءً، مع الكلمات الطقسية في الدخول، والردود «صباح الخير على الجميع – صباح الخير بس» الأحاديث، المطر، الأمراض، الأموات، استئجار العمال، الجفاف. معاينة الأشياء، الغناء على السجية وللتسلية، المزاح المبتذل، **أنا اللى غلطان، أشوفك بكرة، على فكرة**. إفراغ الطفاية، مسحة سريعة للمائدة والكرسي.

ما بين عملين يحل محل أمي في البقالة دون استمتاع، مفضلاً حياة المقهى، أو ربما مفضلاً لا شيء، إلا فلاحة الحديقة وبناء المباني على مزاجه.

(١) پوچاد Poujade زعيم شعبي أسس فى الخمسينيات حزباً معارضاً لجميع الأحزاب التقليدية، للدفاع عن صغار التجار، وحصل على أصوات عالية فى انتخابات ١٩٥٦ التشريعية (المترجمان).

رائحة أزهار جنبة الرباط في آخر الربيع، نباح الكلاب في نوفمبر، صوت القطارات، بشائر البرد، نعم دون شك، كل ما يجعل من يحكمون ويسودون ويكتبون في الصحافة يقولون **هؤلاء الناس سعداء رغم كل شيء.**

الأحد، الاستحمام، جزء من قداس، أدوار الدومينو أو نزهة بالسيارة في العصرية. الاثنين، إخراج القمامة، الأربعاء بائع المشروبات الروحية، الخميس، بائع الأطعمة، الخ. في الصيف يغلقان الدكان يوماً بأكمله ليذهبا عند أصدقاء، موظف في السكة الحديد، ويوم آخر يذهبان ليحجا إلى «ليزيو»: في الصباح زيارة دير الكرمل، الديوراما[1]، الكاتدرائية الرومانية، المطعم. وفي العصرية «البوسونيه» و«تروڤيل - دوڤيل». كان يبل قدميه، رافعاً بنطاله، مع أمي التي كانت ترفع تنورتها قليلاً. ثم كفا عن ذلك لأنه لم يعد موضة.

كل يوم أحد، وجبة طيبة.

نفس الحياة من الآن فصاعداً، بالنسبة له. لكن اليقين بأنه **لا يمكن أن نكون أكثر سعادة مما نحن فيه.**

ذات أحد، كان قد قضى قيلولته. يمر أمام فتحة الصندرة يمسك بيده كتاباً ذهب لإعادته إلى صندوق تركه أمانة عندنا ضابط البحرية. ضحكة صغيرة عندما رآني في الحوش. كان كتاباً إباحياً.

---

(1) صور على عمود دائر، تمثل وجوهاً ومشاهد طبيعية مضاءة من زوايا مختلفة (المترجمان).

صورة لي، التقطت على انفراد، في الخارج، وعلى يميني صف المخازن، القديمة ملتصقة بالجديدة. لم تكن لدي دون شك آنذاك مفاهيم جمالية. أعرف، مع ذلك، كيف أبدو في أحسن مظهر. ملتفتة بثلاثة أرباعي لسَتْر الأفخاذ المحشورة في تنورة ضيقة، إظهار الصدر، خصلة من شعري تمس الجَبهة. أبتسم كي أبدو ألطف. عندي ستة عشرة عاماً. في الأسفل، ظِل النصف الأعلى لأبي الذي التقط الصورة.

كنت أذاكر دروسي، أستمع إلى الأسطوانات، أقرأ، دائماً في غرفتي، لا أتركها إلا لأجلس على مائدة الطعام. كنا نأكل في صمت. لم أكن أضحك في البيت. كنت «أتهكم». هذا زمن أستغرب فيه كل شيء يمسني عن قرب. أهاجر بهدوء نحو عالم البرجوازية الصغيرة، مقبولة في هذه الحفلات الراقصة التي شرط دخولها الوحيد، لكن شديد الصعوبة، ألا يكون الإنسان **أبله**. كل شيء كنت أحبه يبدو لي **قروياً**، «لويس ماريانو»، روايات «ماري آن ديماريه»، «دانيال جراى»، أحمر الشفاه، العروسة التي كسبتها في الملاهى التي تفرش فستانها المزين بالترتر على سريري. حتى مفاهيم بيئتي تبدو لي مضحكة، **أحكاماً مسبقة** مثلاً «الشرطة ضرورية» أو «لن تكون رجلاً ما لم تؤد الخدمة العسكرية». انقلب العالم بالنسبة لي.

كنت أقرأ الأدب «الحقيقي»، وأنقل جملاً، أبياتاً، كنت أعتقد أنها تعبر عن «روحي»، ما يصعب وصفه في حياتي، مثل «السعادة إله يمشي ويداه عاريتان»... (هنري دى رينييه). دخل أبي في فئة **الناس البسطاء أو المتواضعين أو الناس الطيبين**. لم يعد يجرؤ على أن يقص عليَّ حكايات طفولته. ولم أعد أحدثه عن دراستي. باستثناء اللاتينية، لأنه كان قد خدم القداس، كانت دراستي تبدو له غير مفهومة، وكان يرفض إظهار الاهتمام بها، على عكس أمي. كان يغضب عندما كنت أشكو من العمل، أو أنتقد دروسي. لم يكن يعجب بتحوير الكلمات الخاصة بالمفاهيم المدرسية: «بروف» أو «درلو» أو «بوكان»[1]. ودائماً الخوف أو **ربما الرغبة** ألاّ أصل.

---

(١) بروف (prof) للأستاذ (professeur) ودرلو (dirlo) للناظر (dirccteur) وبوكان (bouquin) للكتاب (livre) (المترجمان).

كان يثير أعصابه أن يراني طول النهار بين الكتب، معزياً إليها وجهي المصمت ومزاجي السئ. الضوء تحت باب غرفتي في المساء، كان يجعله يقول أنني استنزف صحتي. الدراسة، عذاب ضروري كي أجد وضعاً جيداً ولكي لا آخذ عاملاً. لكنه كان يرتاب من كوني أحب وجع الدماغ. غياب الحياة في زهرة العمر. كان يبدو أحياناً معتقداً أنني تعيسة.

أمام الأهل، والزبائن، ضيق، شبه خجل من أنني لا أكسب قوتي بعد وأنا في السابعة عشرة من عمري، حولنا كل البنات في هذا السن كن يذهبن إلى المكتب أو المصنع أو يخدمن في محل والديهن. كان يخشى أن يظنونني كسولة وهو دعياً. كاعتذار: «عمرنا ما ضغطنا عليها، كان دا باختيارها». كان يقول أنني أتعلم جيداً، ولم يقل قط أنني أعمل جيداً. العمل، هو فقط العمل اليدوي.

لم يكن للدراسة عنده علاقة بالحياة العادية. كان يغسل السَلَطة مرة واحدة ومن ثم كانت بعض الديدان تبقى. صُدم عندما عرضت عليه - متسلحة بمبادئ التعقيم التي تعلمتها في الإعدادية - أن يغسلها عدة مرات. مرة أخرى، كان اندهاشه بلا حدود عندما رآني أتحدث بالانجليزية مع متجول في الطريق أخذه زبون في عربة نقل. أن أكون قد تعلمت لغة أجنبية في الفصل، دون أن أذهب إلى البلد، أمر لا يصدقه.

في هذه الفترة، أخذ يدخل في نوبات من الغضب، صحيح نادرة، لكنها مصحوبة بتكشيرة بغضاء. كان تواطؤ ما يربطني بأمي. حكايات الألم الشهري، اختيار مشدات الصدر، منتجات التجميل. كانت تصحبني لشراء الأشياء من «روان»، شارع الساعة الكبيرة، وعند «بيريه» لأكل الجاتوه بشوكة صغيرة. كانت تحاول أن تستخدم كلماتي «معاكسة»، «عبقري» وغيرها. لم نكن نحتاج إليه.

كان الشجار ينفجر على مائدة الطعام لأي سبب. كنت أعتقد أنني دائماً

على حق لأنه لم يكن يجيد **النقاش**. كنت أوجه إليه الملاحظات على طريقته في الأكل أو في الكلام. ولكني لم أجرؤ أن أعاتبه على أنه لا يستطيع إرسالي لقضاء الإجازات. كنت أرى أنه من حقي أن أجعله يغير سلوكه. ربما كان يفضل أن تكون لديه ابنة أخرى.

ذات يوم: «الكتب، الموسيقى، كويسين لك، أنا مش محتاجهم علشان **أعيش**».

بقية الوقت، كان يعيش صابراً. عندما كنت أعود من المدرسة. كنت أجده جالساً في المطبخ، بجوار الباب المفتوح على المقهى، يقرأ **«باريس-نورماندي»**، محني الظهر، ماداً اليدين على جانبيّ الصحفية المفتوحة على المائدة. كان يرفع رأسه: «آدى البنت».

- أنا جعانة موت.

- الجوع مرض كويس. كلي اللي انت عايزاه.

سعيد بأن يطعمني، على الأقل. كنا نقول نفس الأشياء القديمة، مثلما كنت صغيرة، لا شيء آخر.

كنت أعتقد أنه لم يعد يستطيع أن يعطيني أي شيء. كلماته وأفكاره لا وجود لها في دروس الفرنسية أو الفلسفة، في صالات المعيشة بأرائكها ذات القطيفة الحمراء عند زميلات المدرسة. في الصيف، من خلال نافذة غرفتي المفتوحة، كنت أسمع ضوضاء محراثه الذي يسوى الأرض المقلوبة بانتظام.

أكتب ربما لأن الكلام كان قد انتهى بيننا.

مكان الأنقاض حيث وصلنا، كان وسط (يـ ...) تقوم الآن عمارات صغيرة رملية اللون بمحلات حديثة تبقى مضاءة طوال الليل. السبت والأحد، كان كل شباب الضواحي يدورون في الشوارع أو يتفرجون على التليفزيون في المقاهي. ونساء الحي يملأن سلال الأحد من محلات الغذاء الكبيرة في وسط المدينة. وكان لأبي أخيراً واجهته البيضاء ورفوفه المضاءة بالنيون، بينما كان أصحاب المقاهي الذواقة يعودون إلى الواجهة «النورماندية» الخالية من الطلاء، ذات العواميد الزائدة والمصابيح القديمة. سهرات طويلة لحساب الربح. «حتى لو أهديناهم البضاعة، لن يأتوا عندنا». مع كل دكان جديد يُفتح في (يـ ...) كان لابد من جولة حولها بالدراجة.

استطاعا البقاء. تحول الحي إلى حي عمالي. مكان الموظفين المتوسطين الذين ذهبوا ليسكنوا عمارات جديدة ذات حمامات، أناس محدودو الدخل، أزواج شباب من العمال، أسر كبيرة تنتظر شقة في الإسكان المتوسط. «بكرة تدفعوا، الناس لبعضها». مات العجائز السابقون، وليس لمن تلاهم الحق في العودة سكارى، فحلّ محلهم زبائن أقل مرحاً وأكثر سرعة ودفعاً من شاربي الصدفة. الانطباع بأن لديهما الآن مكان محترم للشرب.

جاء ليأخذني في نهاية معسكر إجازة كنت فيه مشرفة. صاحت أمي من بعيد: هُوْهُوْ. ورأيتهما. كان أبي يمشي منحنياً، مطرقاً رأسه توقياً للشمس. كانت أذناه منفصلتين، محمرتين قليلاً لا شك لأنه قد حلق شعره تواً. على

الرصيف، أمام الكاتدرائية كانا يتحدثان بعلو صوتهما وهما يتشاجران حول الطريق الذي يجب اتخاذه للعودة. يشبهان كل من لم يعتادوا الخروج. في السيارة، لاحظت بقعاً صفراء بجوار العينين، على الجبهة. كنت قد عشت لأول مرة بعيداً عن البيت، لمدة شهرين، عَالَماً شاباً وحراً. كان أبي عجوزاً، منقبضاً. لم أعد أشعر بالحق في دخول الجامعة.

شيء غير واضح، ضيق بعد الوجبات. كان يأخذ دواء الماغنيسيا خشية استدعاء الطبيب. أخيراً كشف له متخصص من روان - عبر الراديو- عن طفيليات في المعدة، ينبغى أن تُزال سريعاً. كانت أمي تعاتبه باستمرار - لأنه يشغل باله دون مبرر. يضيف التكلفة إلى تأنيب الضمير (لم يكن التجار يستفيدون بعد من التأمين الاجتماعي). كان يقول «ده مقلب».

بعد العملية، بقيَ في العيادة أقصر وقت ممكن واسترد قوته ببطء في البيت كانت طاقاته قد فقدت. خشية التمزق، لم يكن يستطيع نقل الخزائن، أو العمل في الحديقة ساعات متوالية. من الآن فصاعداً، مشهد أمي وهي تركض من المخزن إلى الدكان، حامله صناديق الغذاء وقفف البطاطس مضاعفة العمل. في التاسعة والخمسين من عمره فقد اعتدادَه بنفسه «لم أعد صالحاً لشيء» كان يوجه الكلام لأمي. ربما بمعانٍ كثيرة.

لكنها الرغبة في التجاوز، في التعود مرة أخرى. أخذ يبحث عن مناطق راحته. يستمع إلى نفسه. صار الغذاء شيئاً رهيباً، رحمة أو عذاباً حسبما يُهضم أو **يرتد من حلقه مثل عتاب**. كان يشم البوفتيك أو سمك الغبر قبل أن يلقيه في الطاسة، ويشمئز من منظر أكواب الزبادي الخاصة بي. في المقهى، والوجبات الأسرية، كان يتحدث عما يأكل، يتناقش مع الآخرين في أصناف الشوربة المصنوعة في المنزل أو الجاهزة في أكياس، إلخ. قرب الستين

كان يتحدث مع كل الناس من حوله في نفس الموضوع.

كان يستجيب لرغباته: المورتدلة أو كيس من الجمبرى الرمادي. الأمل في سعادة، غالباً ما تتلاشى بعد اللقيمات الأولى. في نفس الوقت، يدعى دائماً أنه لا يريد شيئاً «هاكل **نص** حته جانبو» «إدوني **نص** كباية»، باستمرار أنواع من الهوس الآن، كأن يفك سجائر «الجولواز»، ذات المذاق السئ، ويعيد لفها في ورق «زجزاج» بحرص.

يوم الأحد، كانا يقومان بجوله بالسيارة كي لا يتحجرا، على ضفاف السين، حيث عمل سائقاً، على مرافئ «دييب» أو «فيكام». الأيدي ملتصقة بجسمه، معلقة، أو موجهة للخارج، وأحياناً ملتصقة بظهره. وهو يتنزه لم يعرف قط ماذا يفعل بيديه. في المساء، كان يتثاءب وهو ينتظر العشاء. «يوم الحد الواحد يبقى تعبان أكثر من الأيام التانية».

السياسة، وخاصة **كيف سينتهي كل هذا** (حرب الجزائر، الانقلاب العسكري، تفجيرات الـ O.A.S)[1]، ألفة متواطئة مع **شارل العظيم**[2]

دخلت مدرسة المعلمين بـ «روان» طالبة - مدرِّسة. كان الغذاء في غاية الوفرة، والغسيل، وحتى لإصلاح الأحذية كان هناك عامل. كل شيء على حساب الدولة. كان يشعر بنوع من الاحترام لهذا النظام الذي يتم فيه تحمل مطلق للنفقات. كانت الدولة تعطيني على الفور مكاني في الدنيا. وحيَّرَهُ تركي للمدرسة أثناء العام. لم يفهم كيف أترك، من أجل أمر يخص الحرية، مكاناً مضموناً إلى هذه الدرجة، حيث كنت في أمان.

قضيت وقتاً طويلاً في لندن. من بعيد، صار يقين لحنان مجرد. أخذت أعيش لنفسي فقط. كانت أمي تكتب لي تقريراً عما يحدث حولهما. الجو بارد هنا، نرجو ألا يطول ذلك. ذهبنا يوم الأحد لزيارة أصدقائنا في «جرانفيل». ماتت الأم س. في سن الستين، ليست الشيخوخة. لم تكن تعرف المُزاح عبر الكتابة، في لغة وتركيبات تتبعها أصلاً. كان يعسر عليها أن تكتب كما كانت تتكلم، لم تتعلم ذلك قط. كان أبي يوقع. كنت أرد أيضاً بنغمة التقرير. كانا

---

(١) «المنظمة السرية المسلحة» هي منظمة يمينية فرنسية كانت مع أن تظلّ الجزائر جزءاً من فرنسا (المترجمان).

(٢) شارل ديجول (المترجمان).

قد شعرا بأن الصيغ الأسلوبية هي طريقة لخلق مسافة بيننا.

عدت وسافرت من جديد. في «روان» كنت أعد ليسانس الآداب. كانا أقل شراسة مع بعضهما البعض، فقط الملاحظات اللاذعة المعتادة، «تاني حتنقص الأورانچينا بسببك»، «بتحكي أيه للقسيس دايماً متشعبطة في الكنيسة»، بحكم العادة. ما زالت لديه مشاريع من أجل الهيئة المُرضية للمحل والبيت، لكنه كان أقل إدراكاً للانقلاب الذي كان يستدعيه جذب الزبون الجديد. يكتفي بذلك الزبون الذي كانت تخيفه بقالات وسط المدينة البيضاء ببائعاتها اللائي تلاحظن **كيف يكون ملبسك**. انتهى الطموح. كان قد استسلم إلى أن تجارته ليست إلا وجوداً سيزول معه.

الآن قرر أن يستمتع قليلاً بالحياة. يؤخر قيامه من النوم، بعد أمي، يعمل بهدوء في المقهى والحديقة، يقرأ الصحيفة من أولها إلى آخرها، يخوض فى أحاديث طويلة مع كل الناس. الموت، تلميح إليه في شكل الحكَم، كلنا نعرف ما ينتظرنا. كلما عدت إلى البيت، أمي: «شوفي أبوك، عمَّال يدلَّع!».

في آخر الصيف، في سبتمبر، يمسك النحل من على زجاج نافذة المطبخ بمنديله ويلقى به على صفحة الموقد حيث النار الممتدة التي أُشعلت تواً. يموت هلاكاً بقفزات فجائية.

لا قلق ولا ابتهاج، استسلم لأن يراني أعيش هذه الحياة الغريبة، الخيالية: عشرون عاماً وأكثر، وما زلت على مقاعد المدرسة. «بتدرس عشان تبقى أستاذه». أستاذة فيم، لم يسأل الزبائن، اللقب فقط مهم، ولم يكن يتذكر أبداً. «آداب حديثة» لم توح له بشيء كما كان لو دَرَست الرياضيات أو الأسبانية. يخشى دائماً أن يحكم عليٍّ بالتميز المبالغ فيه، أن يُتصور أنهما أغنياء كي يدفعاني بهذه الطريقة. ولا يجرؤ مع ذلك على الاعتراف بأنني ممنوحة، كانوا قد رأوا أنهما محظوظان إذ تدفع لي الدولة كي لا أصنع شيئاً بأصابعي العشرة. دائماً محاصر بالحسد والغيرة، ربما يبدو ذلك أكثر الأشياء وضوحاً في

حالته. أحياناً كنت «أروَّح» عندهما يوم الأحد صباحاً بعد ليلة مؤرقة، أنام حتى المساء. لا كلمة. شبه موافقة، البنت تستطيع أن تمزح **برقة**، كدليل على أنني طبيعية رغم كل شيء. أو الأدق تصور مثالي للعالم المثقف والبرجوازي، كثيف. عندما كانت ابنة عامل تتزوج وهي حامل، كان الحي كله يعرف.

في الإجازات الصيفية، كنت أدعو في (يـ ...) زميلة أو زميلتين من الكلية، بنات **دون أحكام مسبقة**، كن يعلنَّ «المهم هو القلب». لأني كنت أعلن، بطريقة من يريدون تحاشى أى نظرة تفضل إلى أسرتهم: «إنت عارفة، كل شيء عندي بسيط» كان أبي سعيداً باستقبال هؤلاء الفتيات ذوات التربية الحسنة، ويكلمهن متحاشياً أن يقع الحديث، مهتماً بشدة بكل ما كان يخص صديقاتي. كان تكوين الوجبة مصدراً للقلق، «هل تحب **الآنسة** جونڤيڤ الطماطم؟». كان يبذل جهداً كبيراً. عندما كنت أُستقبل في أسرة إحدى هؤلاء الصديقات، أكون مدعوة لأشارك بطريقة طبيعية في نمط حياة لم يغيِّره وجودي. لأن أدخل عالمهم الذي لم يكن يخشى أي نظرة غريبة، والذي كان مفتوحاً لي لأنني كنت قد نسيت سلوك عالمي وأفكاره وأذواقه.

كان أبى، وهو يعطي هيئة الاحتفال، لما لم يكن في هذه الأوساط إلا زيارة عادية، يريد تكريم صديقاتي وأن يبدوَ مهذباً. كان بالأساس يكشف عن نقص كن يتعرفن عليه رغماً عنهن، إذ كن يقلن له مثلاً «صباح الخير، **ازيك**» ذات يوم، بنظرة معتدة «لم أسبب لك الخجل أبداً».

ذات صيف، في نهايته، **صَحبتُ إلى البيت** طالباً في العلوم السياسية كنت مرتبطة به. طقس احتفالي يكرِّس حق الدخول في الأسرة، طُمس في الأوساط الحديثة، الميسورة، حيث يدخل الزملاء ويخرجون بحرية. ليَستقْبل هذا الشاب، ارتدىَ رابطة عنق واستبدل بالأڤرول الأزرق بنطال الأحد. كان مبتهجاً، ضامناً أنه يستطيع اعتبار زوجي المقبل مثل ابنه، وأن يقيما معاً، رغم فروق التربية، تواطؤاً رجالياً. قدم له حديقته والجراج الذي بناه بمفرده،

بيديه. عطاء لما يجيد عمله، آملاً في أن يعترف بقيمته هذا الولد الذي يحب ابنته. أما هو، فقد كان يكفي أن يكون **مؤدباً**، وكانت هذه أكثر الصفات تقديراً عند أبويَّ، لأنها تبدو لهما نصراً صعباً. لم يحاولا أن يعرفا، كما كانا سيفعلان لو كان عاملاً، ما إذا كان «جدعاً» أو أنه لا يشرب. اقتناع عميق بأن المعرفة والسلوك المهذب علامات امتياز داخلي بالسليقة.

شيء منتظر منذ سنوات ربما، هَمٌّ زال. الآن متأكد أنني لن **آخذ أي حد** أو أتحول إلى إنسانة **مختلة**. أراد أن يساعد توفيرهُ الزوجين الجديدين، راغباً في أن يعوض بكرم غير محدود مسافة الثقافة والسلطة التي كانت تفصله عن زوج ابنته. «احنا ما بقيناش عاوزين كثير». في وليمة الفرح، في مطعم على السين، يجلس مميلاً رأسه إلى الوراء قليلاً، يداه على الفوطة المفرودة على رقبته، يبتسم قليلاً، في الفراغ،كمن يمل منتظراً الأطباق. هذه الابتسامة تعني أيضاً أن كل شيء هنا، اليوم، جيدٌ جداً. يرتدي حلة زرقاء ذات خطوط، أوصى عليها، وقميصاً أبيض مع أزرار أكمام لأول مرة. لقطة من الذاكرة. كنت قد التفتُّ وسط ضحكي إلى هذه الناحية، متأكدة أنه غيرُ مبتهج.

بعد ذلك لم يرنا إلاَّ كل حين وحين.

كنا نعيش في مدينة سياحية بجبال «الألب» حيث كان زوجي يشغل وظيفة إدارية. كانت الجدران مغطاة بقماش من التيل، نقدم الويسكي كفاتح للشهية، ونستمع إلى بانوراما الموسيقى القديمة في الراديو. ثلاث كلمات مهذبة لحارسة البوابة. انزلقتُ إلى هذا النصف من العالم الذي لم يكن نصفه الآخر، إلا زينة له. كانت أمي تكتب، يمكنكما المجئ إلى البيت لتستريحا، لم تجرؤ أن تطلب ذهابنا لمجرد رؤيتهما. كنت أذهب بمفردي، دون ذكر للأسباب الحقيقية لعدم اهتمام زوج ابنتهما، أسباب غير معلنة بيني وبينه، قبلتها كأنها مفروغ منها. كيف كان ممكناً أن يستمتع رجل ولد وسط برجوازية الشهادات، «ساخر» باستمرار، بصحبة **أناس طيبين**، لن يعوض أبداً لطفهم، الذي يعترف به، هذا النقص الأساسي: حديث مثقف. في أسرته إذا كسر أحد كأساً على سبيل

المثال، كان هناك من يقول: لا تمسسه، فهو حطيم، (بيت شعر لـ «سولى برودوم»).

كانت هي التي تنتظرني دائماً عند وصول القطار من باريس، بجوار حاجز الخروج. كانت تأخذ حقيبتي بالقوة «تقيلة عليك، إنت مش متعودة». في البقالة كان هناك شخص أو شخصان، يكف عن خدمتهما لحظة ليقبلني بفجاجة. كنت أجلس في المطبخ وهما واقفان، هي بجوار السلم وهو وسط الباب المفتوح على صالة المقهى. في هذه الساعة كانت الشمس تضئ الموائد وأكواب المائدة وأحياناً زبون يستمع إلينا في غمرة الضوء. بعيداً كنت قد جردت أبويَّ من حركاتهما وكلماتهما وجسديهما المهيمنين. كنت أسمع من جديد طريقتهما في قول «هيَّه» بدلاً من «هي»، وحديثهما العالي. كنت ألقاهما كما كانا دائماً، دون هذا «الوقار» في الهيئة، وهذه اللغة السليمة، التي كانت تبدو لي الآن طبيعية. كنت أشعر أنني منفصلة عن نفسي.

أخرج من حقيبتي الهدية التي أحضرتها له. يفتحها باستمتاع. زجاجة كولونيا لبعد الحلاقة. ضيق، ضحكات، «ينفع في إيه»؟ ثم «حتبقى ريحتي زي الشرموطة!» لكن يعد بأنه سيستخدمها. المشهد المضحك للهدية غير المناسبة، رغبتي في البكاء كما في الماضي «إذن لن يتغير أبداً!».

كنا نذكر سكان الحي، الذين تزوجوا، ماتوا، رحلوا عن (يـ ...) أصف الشقة، المكتب الصغير من طراز «لوي - فيليب»، المقاعد ذات القطيفة الحمراء، جهاز التسجيل. بسرعة شديدة، يكف عن الاستماع. كان قد رباني كي أستفيد بترف لم يكن يعرفه، كان سعيداً، لكن الحشايا «الدانلوبيلو» والصوان القديم لم يمثلا له أي أهمية سوى تأكيد نجاحي. كثيراً، للإيجاز: «معاكم حق تستفيدوا».

لم أكن أمكث أبداً وقتاً طويلاً. كان يسلمني زجاجة الكونياك لزوجي: «طبعاً، المرة الجاية». اعتزاز ألا يظهر شيء، **في الجيب وعليه منديل**[1].

ظهر أول سوبر ماركت في (يـ ...)، جاذباً الزبائن العمال من كل مكان، أخيراً كان من الممكن شراء البضائع دون تعامل مع أحد. لكن دائماً كان إزعاج البقال الصغير في الحي بطلب كيس البن الذي نُسى شراؤه من المدينة، أو اللبن الطازج أو «المالابار»[2] قبل الذهاب إلى المدرسة. بدأ يفكر في بيع المحل والإقامة في بيت مجاور اشترياه مع العقار، غرفتان بمطبخ ومخزن. سوف يأخذ معه نبيذاً جيداً وعلباً محفوظة. ويربى بعض الدجاج من أجل البيض. ويأتيان ليزورانا في «هوت - سفوا». أخيراً كان راضياً بالاستفادة من الحق الجديد، وهو في الخامسة والستين من عمره، في التأمين الاجتماعي. عندما كان يعود من الصيدلية، يلصق الطوابع على ورقة التأمين بسعادة.

كان يزداد حباً في الحياة.

مضت شهور كثيرة منذ اللحظة التي بدأت فيها هذه القصة في نوفمبر. قضيت وقتاً طويلاً لأنّ إظهار الوقائع... فالذاكرة تقاوم. لم أكن أستطيع الاعتماد على التذكر، في صرير جَرْس دكان قديم، ورائحة شمام نضج أكثر من

---

(١) عبارة فرنسية دارجة تعني إخفاء الإذلال أو الشعور بالمهانة الناتج هنا - عن عدم مجئ زوج البنت لزيارة أهلها (المترجمان).

(٢) اللبان (المترجمان).

اللازم، لا أجد غير نفسي وصيفيات الإجازة في (يـ ...) لم يكن لون السماء أو ظلال أشجار الصفصاف في «لواز» القريبة أشياء تحتاج إلى تعلّم. وإنما في الطريقة التي يجلس بها الناس ويَملّون في قاعات الانتظار وينادون على أطفالهم ويودعون على أرصفة المحطات بحثت عن صورة أبي. والتقيت- في أشخاص مجهولين وجدتهم في أى مكان، حاملين دون أن يعرفوا علامات القوة أو المهانة - بالحقيقة المنسية لوضعه.

لم يأت ربيع، لديّ انطباع بأنني منحصرة في زمن ثابت منذ نوفمبر، منعش ومطير، بالكاد يزداد برودة في قلب الشتاء، لم أفكر في نهاية كتابي. الآن أعرف أنها تقترب. جاء الحرّ في بداية يونية. وتنبئ رائحة الصباح أن الجو سيكون جميلاً. قريباً لن يبقى شيء أكتبه. أريد أن أؤجل الصفحات الأخيرة، أن تكون دائماً أمامي. لكن ليس ممكناً أن أعود بعيداً إلى الوراء، أن ألمس من جديد أو أضيف وقائع أو حتى أن أسأل نفسي أين كانت السعادة. سوف استقل قطار الصباح ولن أصل إلا في المساء كالعادة. في هذه المرة أصحب لهم حفيدهم ذا العامين والنصف.

كانت أمي تنتظر عند حاجز الخروج بسترة تاييرها فوق قميصها الأبيض، ومنديل فوق شعرها الذي كفت عن صبغه منذ زواجي. الطفل، صامت من الإرهاق وضائع، بعد هذه الرحلة اللانهائية، ترك نفسه يُقبَّل ويُجرُّ من يده. كان الحرّ قد انخفض قليلاً. تمشي أمي دائماً بخطوات قصيرة وسريعة. فجأة تبطئ صائحة «معانا رجْلين صغيّرين، أيه ده!». كان أبي ينتظرنا في المطبخ. لم يبدُ لى أنه شاخ. أشارَتَ أمي أنه ذهب أمس إلى الحلاق إكراماً للصغير. مشهد مشوش بعلامات تعجب وأسئلة للطفل دون انتظار جوابه، عتاب بينهما أنهما يرهقان هذا الرجل الصغير المسكين، وأخيراً الاستمتاع. بحثا عن **الجهة التى كان فيها**. أخذته أمي أمام علب الحلوى، وأبي إلى الحديقة كي يرى الفراولة ثم الأرانب والبط. مستوليان تماماً على حفيدهما، مقررين كل شيء له، كأنني

قد ظللت طفلة صغيرة غير قادرة على تربية طفل. مستقبلين بريبة مبادئ التربية التي كنت أعتقد أنها ضرورية، القيلولة ورفض الحلويات. كنا نأكل نحن الأربعة بجوار مائدة ملتصقة بالنافذة، الطفل على حجري. أمسية جميلة وهادئة، لحظة تشبه تكفيراً.

كانت غرفتي القديمة قد احتفظت بحرارة النهار. كانا قد وضعا سريراً صغيراً للرجل الصغير بجوار سريري. لم أنم قبل الثانية صباحاً، بعد أن حاولت القراءة. بمجرد توصيل الكهرباء اسودّ خيط المصباح بشرارات وانطفأت اللمبة. لمبة على شكل كرة مثبتة على قاعدة من المرمر بأرنب معدني مستقيم مثني الساقين. كنت قد رأيتها من قبل في غاية الجمال. لا شك أنها فسدت منذ زمن طويل. لم يصلحوا شيئاً في البيت بالمرة، لا مبالاة إزاء الأشياء.

الآن، زمن آخر.

استيقظت متأخرة. في الغرفة المجاورة كانت أمي تكلم أبي برقة. أخبرتني أنه تقيأ عند الفجر دون أن يستطيع الانتظار حتى إحضار دلو التشطيف. كانت تفترض سوء هضم نتيجة لبقايا دجاج ظُهر الأمس. كان مشغولاً بصفة خاصة بمعرفة ما إذا كانت قد مسحت الأرضية وشكا من ألم في صدره. بدا لي صوته متغيراً. عندما اقترب الطفل منه، لم يهتم به، وظل على ظهره، دون حركة.

صعد الطبيب مباشرة إلى الغرفة. كانت أمي تخدم في المقهى. ثم لحقت به ونزل كلاهما إلى المطبخ. أسفل السلم همس الطبيب أنه من الضروري أن ينقل إلى المستشفى العام في «روان». انكسرت أمي. كانت منذ البداية تقول لي: «دايماً عاوز ياكل إللى ما ينفعوش» ولأبي وهي تحضر له الماء المعدني «ما انت عارف إن بطنك ضعيفة». كانت تفرك فوطة المائدة النظيفة التي استخدمت للكشف، ولا تبدو فاهمة، رافضة خطورة مرض لم ندركه في البداية. استرد الطبيب نفسه، من الممكن الانتظار إلى المساء حتى نقرر، قد لا تكون سوى ضربة شمس.

ذهبت لإحضار الأدوية. كان اليوم يبدو ثقيلاً. عرفني الصيدلي. مجرد

زيادة قليلة في السيارات في الشوارع عن زيارتي في السنة السابقة. كان كل شيء هنا كما كان دائماً منذ طفولتي حتى أنني لا أتخيل أبي مريضاً حقاً. اشتريت خضاراً لصنع «التورلي». قلقُ بعض الزبائن من ألاّ يروا الريس، ألاّ يكون قد قام في جو جميل كهذا. كانوا يجدون التفسيرات البسيطة لوجعه، دليلها أحاسيسهم الخاصة، «امبارح كانت الحرارة أربعين درجة على الأقل في الحدائق، لو كنت فضلت فيها كنت وقعت زيه». مثل أمي، بدا أنهم يعتقدون أن أبي قد مرض لأنه أراد أن يتمرد على الطبيعة ويتصرف كشاب. تلقى عقابه ولكن يجب ألا يفعل ذلك مرة أخرى.

أثناء مروره قرب السرير، سأل الطفل ساعة القيلولة: «ليه نايم نته الراجل؟».

كانت أمي لا تزال تصعد بين خدمة زبونين. عند كل جرس، كنت أصيح لها من تحت مثلما في الماضي «فيه ناس!» كي تتركه للخدمة. لم يكن يشرب غير الماء، لكن حالته لم تَسُؤ. في المساء لم يذكر الطبيب المستشفى مرة أخرى.

في اليوم التالي، كلما كانت أمي أو أنا نسأله عن حالته ، كان ينهض غاضباً أو يشكو من أنه لم يأكل منذ يومين. لم يمزح الطبيب مرة واحدة كعادته قائلاً «هي فسية غلط». يبدو لي أنني عند نزوله كنت أنتظر - باستمرار - ذلك أو أية مُزحة أخرى. في المساء، همست أمي، خافضة عينيها. «مش عارفة هيحصل إيه». لم تذكر بعد احتمال موت أبي. منذ الأمس كنا نتناول وجباتنا معاً، نهتم بالطفل، دون أن نتحدث عن مرضه. أجبت «هنشوف». عندما كنت في الثامنة عشرة من عمري سمعتها أحياناً ترمي لي «لو حصل لك شيء... تبقى عارفة حتعملي إيه». لم يكن ضرورياً أن تحدد الشيء، كنا نعرف أنا وهي ما هو دون أن تنطق الكلمة أبداً، أن أكون حاملاً.

ليلة السبت، صار تنفس أبي عميقاً ومتقطعاً. ثم سُمع جيشان شديد، مستمر، متميز عن التنفس. كان مُفْزعاً لأن مصدره غير معروف، من الرئتين أم من الأمعاء، كأن كل شيء في الداخل يتصل بعضه بالبعض الآخر. حَقَنَهُ الطبيب بمصل مهدئ - استكان. في العصر رتبت غسيلاً مكوياً في الصوان. فضولاً، أخرجت قطعة قماش وردية وفرشتها على السرير. حينئذ رفع جسمه لينظر لي وقال بصوته الجديد «ده لتنجيد سريرك. أمك نجدت ده» وجذب

غطاءه ليريني المرتبة. كانت أول مرة منذ ذبْحته يهتم بشيء من حوله. متذكرة هذه اللحظة أظن أنه ما زال ثمة أمل، لكنها كلمات ليظهر أنه ليس شديد المرض بعد، بينما كان هذا المجهود للتعلق بالعالم يعني بالضبط أنه يبتعد عنه.

بعد ذلك، لم يعد يحدثني. كان في كامل وعيه، يلتف للحقْن عندما تأتي الممرضة، مجيباً نعم أو لا عن أسئلة أمي، لو كان موجوعاً أو عطشاناً. من حين لآخر، كان يحتج كأن مفتاح الشفاء كان موجوداً، ومرفوضاً لا يعرف ممّن، «لوْ بَس أقدر آكل». لم يعد يحسب منذ كم يوم بقى صائماً. أمي تردد «قليل من الصوم لا يضر» كان الطفل يلعب في الحديقة. وأنا أراقبه بينما أحاول أقرأ «المندرين» لسيمون دى بوڤوار. لم أكن أندمج في قراءتي، عند صفحة ما من هذا الكتاب الضخم لن يكون أبي حياً. كان الزبائن يسألون باستمرار عن الأخبار. يريدون معرفة مرضه بدقة، ذبحة أم ضربة شمس، وتثير الإجابات المبهمة من أمي الريبة، يظنون أن هناك شيئاً يخْفَى عنهم. بالنسبة لنا، لم يعد الاسم مهما.

صباح الأحد، أيقظتني دندنة إنشادية، مقطَّعة بالصمت. التناول المسيحي لما قبل الموت. أقبح الأشياء في الوجود، غرست رأسي في الوسادة. اضُطرت أمي أن تقوم مبكراً كي تلحق برئيس الكهنة بعد القداس الأول.

بعد ذلك صعدتُ عنده في لحظة كانت أمي تخدم فيها.

وجدته جالساً على حافة السرير، رأسه منحن، مبحلقاً بيأس في الكرسي المجاور للسرير. كان يمسكُ كوبَه الفارغ بطرف ذراعه المتشنجة كانت يده ترتجف بشدة. لم أفهم في الحال أنه يريد إلقاء الكوب على الكرسي. لمدة لحظات لا نهائية، تأملت اليد. شكلها اليائس. وأخيراً، أخذت الكوب، وأرقدته مرة أخرى، معيدة ساقيه على السرير. «أقْدَرْ أعمل ده» أو «أنا كبيرة ما دام باعمل ده». جرؤت على النظر إليه. لم يغط وجهه سوى علاقة بعيدة مع الوجه الذى كان له دائماً عندي. حول طاقم الأسنان - رفض أن يخلعه - كانت شفتاه ترتفعان فوق اللثة. أصبح أحد هؤلاء الشيوخ مرضى الملجأ الذين كانت ناظرة مدرسة الراهبات تجعلنا نغني أمام أسرتّهم أناشيد الميلاد. ومع ذلك وحتى في هذه الحالة، كان يبدو لي أنه ما زال يستطيع أن يعيش طويلاً.

في الثانية عشرة والنصف أرقدت الطفل. لم يكن نعساناً وكان يتقافز

على سست سريره بكل قوة. كان أبي يتنفس بصعوبة، عيناه مفتوحتان. أغلقت أمي المقهى والبقالة مثل كل أحد حوالي الواحدة. صعدت بجواره. بينما كنت أغسل الأطباق، وصَلَ عمي وزوجته. بعد أن رأيا أبي، جلسا في المطبخ. قدمت لهما قهوة. سمعت أمي تسير ببطء فوق ثم تشرع في النزول. اعتقدت، رغم مشيتها البطيئة غير المعتادة، أنها قادمة لتشرب قهوتها. عند منحنى السلم بالضبط، قالت بهدوء: «خلاص».

لم يعد المحل موجوداً. أصبح مسكناً، بستائر من الترجال على الواجهات القديمة. انطفأ المكان بذهاب أمي التي تعيش في شقة صغيرة قريباً من وسط المدينة. أوصت على ضريح مرمري جميل للمقبرة. (أ...د) ١٨٩٩ - ١٩٦٧. وقور ولا يحتاج إلى صيانة.

انتهيت من إعلان الإرث الذي كان عليَّ أن أتركه على عتبة العالم البرجوازي المثقف عندما دخلت فيه.

ذات أحد بعد القداس، كان عمري اثنى عشر عاماً، صعدت مع أبي سلم العمودية الكبير. بحثنا عن باب مكتبة المدنية. لم نكن قد ذهبنا إليها قط. كنت سعيدة بذلك. لم نسمع أي شيء وراء الباب. مع ذلك دفعه أبي. كان كل

شيء ساكناً، أكثر حتى من الكنيسة، كانت الأرضية تطقطق وخاصة هذه الرائحة الغريبة، القديمة. كان رجلان ينظران إلى مجيئنا من فوق حاجز عالٍ يمنع الوصول إلى الرفوف. تركني أبي أطلب «نريد استعارة كتب». أحد الرجالُ فوراً: «أي كتب تريدان». لم نفكر في البيت أن المعرفة المسبقة بما كنا نريده ضرورية. أن نكون قادرين على ذكر العناوين بسهولة كأنها أصناف البسكويت.
اختارا بدلاً منا **«كولومبا»** لي، ولأبي رواية **خفيفة** لموباسان. لم نعد إلى المكتبة وكان على أمي أن ترد هي الكتب، ربما مع بعض التأخير.

كان يقودني من البيت إلى المدرسة على دراجته، عابراً بين ضفتين، تحت المطر والشمس.

ربما كان فخره الأكبر أو حتى تبريراً لوجوده: أن أنتمي إلى هذا العالم الذي أحتقره.

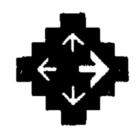
كان يغني **«المجداف هو الذي يدور بنا»**.

أتذكر عنواناً: **خبرة الحدود**. إحباطي عندما قرأت البداية، لم يكن الموضوع إلا ميتافيزيقا وأدب.

وأنا أكتب، مازلت أصحح واجبات وأعطي نماذج للإنشاء، لأنني مأجورة لذلك. وكان لعب الأفكار هذا يعطيني أنا نفسي انطباعاً **بالترف**، شعور باللاواقع، الرغبة في البكاء.

في شهر أكتوبر من العام الماضي، وأنا في الصفّ أنتظر بسَلّة السوبر ماركت، تعرفت في موظفة الخزينة على تلميذة قديمة. تذكرت أنها كانت تلميذتي منذ خمس سنوات أو ست. لم أتذكر أسمها، ولا فى أي صف كانت. كي أقول شيئاً عندما جاء دوري، سألتها: «إنت كويسة؟ مبسوطة هنا؟» أجابت نعم نعم. ثم بعد أن سجلت العلب المحفوظة والمشروبات، بضيق «التعليم الفني، ما مشيش». كانت تظن أنني ما زلت أذكر توجهها. لكنني كنت قد نسيت لماذا توجهت إلى التعليم الفني وفي أي فرع. قلت لها «إلى اللقاء». كانت قد بدأت تأخذ المشتروات التالية بيدها اليسرى وتدق دون أن تنظر بيدها اليمنى.

نوفمبر ١٩٨٢ - يونيو ١٩٨٣



إصدارات شرقيات

دار لنشر الأعمال الإبداعية المتميزة
في إخراج طباعي متميز

روايات

اللجنة / صنع الله إبراهيم
وكالة عطية/ خيري شلبي
رائحة البرتقال/ محمود الورداني
وردية ليل / إبراهيم أصلان
حجارة بوبيللو / إدوار خراط
عهدة الصقر / ألان نادو (سلسلة عيون الأدب الأجنبي)
الكلمات / چان پول سارتر (سلسلة عيون الأدب الأجنبى)
الأحمر والأسود / ستندال (سلسلة عيون الأدب الأجنبى)
المكان / أني إرنو (سلسلة عيون الأدب الأجنبى)



قصص

السرائر/ منتصر القفاش
الديوان الأخير / عبد الحكيم قاسم
أمواج الليالي / إدوار الخراط
ضوء ضعيف لا يكشف شيئا / محمد البساطي
القمر في اكتمال / نبيل نعوم
شرفات قريبة / هناء عطية



شعر

فاصلة ايقاعات النمل / محمد عفيفي مطر
مطر خفيف في الخارج / إبراهيم داوود
فقه اللذة / حلمى سالم
لا نيل إلا النيل / حسن طلب
الآثار الشعرية الكاملة / إديت سودرجران (سلسلة عيون الأدب الأجنبي)



دراسات

من أوراق الرفض والقبول / فاروق عبد القادر
مسرح الشعب / د. علي الراعي
البحث عن المنهج في النقد الأدبي الحديث / د. سيد البحراوي
يوميات الحب والغضب / فريدة النقاش
الكتابة عبر النوعية / إدوار الخراط



كاريكاتير

ناجي العلي في القاهرة / ناجي العلي
(بالاشتراك مع دار المستقبل العربي)



عيون الأدب الأجنبي

يصدر منها

- **عبَدَة الصفر**
  ألان نادو
  ترجمة: البستاني و البطراوي
- **مدام بوڤاري**
  جوستاف فلوبير
  ترجمة: محمد مندور
- **الكلمات**
  چان پول سارتر
  ترجمة: خليل صابات
- **الأحمر والأسود**
  ستاندال
  ترجمة: عبد الحميد الدواخلي
- **المكان**
  آني إرنو
  ترجمة: أمينة رشيد
  و سيد البحراوي



دار شرقيات للنشر والتوزيع

